الثقافة

مجلة أدبية جامعة



أعلام الرسام فنان : عزة العش

آذار (مارس) ١٩٥٩

صاحبها ورئيس تحريرها
مدحة عكاش
MADHAT AKKASHE

الثقافة
مجلة ثقافية أدبية شهرية
دمشق ص ب (٢٥٧٠) هاتف ١٦٢٩١ .

العدد الحادي عشر
(آذار) ١٩٥٩
السنة الاولى

تحية الخليج

شعر : مدحة عكاش

هذه القصيدة كانت تحية للشباب القومي العربي في الكويت بمناسبة انعقاد مؤتمر الادباء العرب الرابع على الخليج العربي .

حسبه الله كاد يقطر وجدا ... خافق في جوانحي ليس يهدا
كلما لاح من دمشق خيال ... ملك الشوق مهجتي واستبدا
يا فؤادي أقصر فلست غريباً ... وتصبرْ فصبرك اليوم أجدى
ما ترانا وقد قطعنا الفيافي ... وحللنا على الخليج المفدى
أنا في موطني وبين عشيري ... يا فؤادي ما زادك الدرب بعدا

. . .

أيها الشط يا نجي جفوني ... في سكوني نعمت بل طبت رفدا
ما رأت مقلتاي قبلك دنيا ... ملئت حكمة ولباً ورشداً
وشباباً روحي الفدا لشباب ... هو أبهى من الربيع وأندى
عربي السماء وجهاً وروحاً ... وإباء على المكاره صلدا
جمعت بيننا الأماني فكنا ... ملء سمع الزمان عزاً ورفدا
ووهبنا مشارق الارض برداً ... يعربياً وللمغارب بردا
ما محت مجدنا المقادير الا ... وبنينا رغم المقادير مجدا
عرب نحن لن تشاهد فينا ... مستكيناً ولن تشاهد عبدا
أمة زانها الاباء فكانت ... عند جور الغشوم اقوى وأعدى
كلما انجزت على الظلم وعداً ... جددت في قتاله المر وعدا

. . .

يا مغاني بغداد لا الظلم يبقى ... مستبداً ولا إباؤك يُردى
ما عهدنا شبابك السمح إلا ... إن طغى الهول في الشدائد اسدا
لا تضني على العروبة إنا ... قد عهدنا فيك السماحة عهدا
يؤلم الصقر أن يرى من بنيه ... من توانى عن ركبه او تصدى

الضحك والاضحاك

بقلم :

الدكتور ابراهيم الكيلاني

--- ما هو الضحك ؟

تقول المعاجم العربية : ضحك ضد بكى، وضحك انبسط وجهه بحيث تظهر الاسنان، ومنها السن التي تبدو عند الضحك فهي ضواحك . ويقولون في الدعاء: اضحك الله سنه .

وهذا كما ترون تعريف للضحك من الوجهة الغريزية الالية حتى اذا اردنا تجاوز هذا التعريف المقتضب الى تعريف يتناول الناحية النفسية في الضحك عمدنا الى معجم اجنبي فوجدنا ان الضحك هو التعبير عن عاطفة مرح فجائي بحركة في الشفتين والفم مصحوبة احياناً بضوضاء .

ان الضحك كما تعلمون خاص بالانسان ، وهو ـ أي الانسان ـ حيوان ضاحك ومضحك ، يضحك لانه يتمتع بخصائص وجدانية وعاطفية ينفرد بها دون سائر المخلوقات ، فالحيوان لا يضحك بل يكشر ، والكشر عند الحيوان كالضحك عند الانسان ، لان من اراد ان يشعر حقاً بموسيقية هذه الآلة البديعة التي هي الضحك وجب ان يتمتع بالعواطف والقوى العاقلة والانطباعات الاخلاقية التي تستوعب احكاماً وتصورات لا نجدها عند الحيوان، وهكذا فان الطبيعة زودت الانسان بهذه الموهبة الحتمية الفريدة التي يعبر بها عن عالمه النفسي . ويقول علماء التشريح : ان في وجه الانسان عضلة اسموها « العضلة الميوقة » لها وظيفة ضحكية ، فاذا ضغطنا على هذه العضلة بآلة مكهربة استطعنا ان نحدث على وجه انسان ميت تقلصاً آلياً هو الضحك .

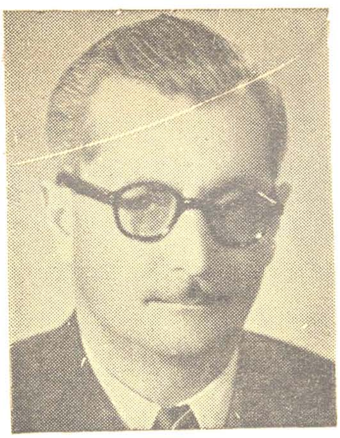
وقد اذكرتني هذه الحركة بيتاً احفظه المازني رحمه الله يصف فتى ميتاً:

قد قبضت ثغره منيته   كأنه للحمام يبتسم

ان اللغة العربية غنية بالمفردات عن الضحك، وكان العرب على عادتهم في اصطياد الحركات والظواهر الجسمية قد صنفوا الضحك على درجات ، مستندين في البداية على الاصوات الضحكية وصاعدين من الضحك الخفي المكتوم الى الظاهر المفضوح . فجعلوا التبسم اول مراتب الضحك ثم الاهلاس وهو اخفاؤه، ثم الافترار وهو الضحك الحسن ، ثم الكتكتة اشد منها ، ثم القهقهة والقرقرة والكركرة ، ثم الاستغراب ، ثم الطخطخة وهي ان يصيح الضاحك : طيخ طيخ ، ثم الزهزقة وهي ان يذهب الضحك بك كل مذهب .

ونزيد ـ نحن المعاصرين ـ على ذلك انواعاً اخرى وهي: ضحكة المجاملة، وهي ضحكة الضعفاء العاجزين ، يبغون من ورائها الفوز بعطف الاقوياء واحلال الصداقة النفعية محل العداوة مصحوبة باوضاع وحركات الخضوع التي قد تصل الى حد التملق ، وهي ضحكة المهرجين الذين يرون خلاصهم أو نجاحهم عن طريق هذا النوع من العبودية واستجداء رضى الكبار ذوي الحول والطول والسلطان .

ومنها الضحكة الصفراء وهي التي لا تصدر عن القلب ، يخفي صاحبها وراءها استياء اوحقداً او خيبة اووعيداً ، وتبدو الضحكة الصفراء امام خطر بين مداهم تمنع الاصطلاحات والاعتبارات الاجتماعية الاجابة عن حالة بمثلها وهي شديدة الشيوع في المراتب الاجتماعية المتسلسلة، وتظهر بصورة خاصة عندما يكون التهديد موجهاً من رئيس تحميه امتيازاته المعترف بها الى مرؤوس ضعيف عاجز عن رد الاساءة بمثلها، فالضحكة الصفراء تعبر حينئذ عن محاولة سريعة من جانب المرؤوس للمصالحة ، وقد يكون نصيب الفشل فيها اكثر من النجاح على اعتبار ان زمام المبادءة بالصداقة والتحبب هو



في يد من يملك القدرة والقوة ، فينزع ذو الضحكة الصفراء الى التقليل من حدة العاصفة والتقليل من الخسائر .

ومنها ضحكة البشاشة والود ، وترمي الى انزال الغير في نطاق ساحتنا الوجدانية ، كما يحاول ايضاً ـ اذا كانت متبادلة ـ انزالنا في ساحته ، وهي ضحكة مشرقة تنير وجه الضيافة في مظهريها المادي والمعنوي ، ولا ادل عليها من فتح الذراعين مصحوباً بضحكة فيها معنى الصداقة الانسانية البريئة المجردة عن كل غاية او نفع . ان هذه الضحكة غنية بالمعاني والشيات والالوان ، فقد تكتسب صفة الاعتذار ففيها يعترف الضاحك امام غيره بخطئه وهفوته غير المقصودين كما يجيب الثاني بضحكة مماثلة تفيد السماح وتنبيء عن العفو والتجاوز عن الخطيئة .

وقد تكتسب صفة الانفراج والتفاؤل من تطور مجرى الحوادث ، نحو التحسن والرضى بعد حالة سيئة متوترة

وقد ترمز الى التعاون الاخوي الذي يصحب العمل المشترك وعواطف التساند المتبادلة اللذين يربطان الفرد بالمجموع وتظهر بصورة خاصة في الحالات التي تحل فيها الصداقة والثقة محل العنف الظاهر او الخفي .

ومنها الضحك بالعب (والعب الردن او اصل الكم او طرفه الواسع) وهو ضحك خبيث ينبيء عن الرضى والفوز بالغنيمة تارة او النذالة والشماتة وقلة المروءة ومنها الضحك على اللحى وهو معروف .

والضحك نوعان : ضحك الصغار وهو ضحك بريء ، رنان يصدر عن استعداد طبيعي للتفاؤل والسرور والرضى وتحدثه اقل المؤثرات ، وضحك الكبار ، وهو انفجار حادث ، مبعثه ليس عدم الاهتمام واللامبالاة كما هي الحال عند الطفل بل خصائص عقلية معقدة مضحكة من فكاهة او نادرة او ذكرى خاصة ، فهو حال استثنائي وزحزحة لكابوس الوقار وثقل التقاليد الاجتماعية التي نرزح تحتها حيث تتجاذبنا نحن الكبار احزان الماضي ومتاعب الحاضر ومخاوف الغد التي تشكل كلها تجاربنا المفجعة في الحياة .

ويعجبني جواب من سئل .

لماذا يضحك الحمقى دوماً ؟

لانهم لا يفكرون او لانهم لا يتذكرون !

على ان الانسان مدفوع على الرغم من هذه السدود والقيود الى الضحك ، لانه وظيفة طبيعية ، فقد يضحك الانسان في احرج الاوقات ، وأحلك الساعات لان الضحك عنوان الحياة والانفراج والتفاؤل والتوسع والخفة ، في حين ان البكاء عنوان الانكماش والانطواء والتشاؤم ، افلا ترون ان الناس يستهجنون الضحك في امكنة العبادة بقدر ما يستطيبون البكاء فيها ، ويستطيبون الضحك في المجتمعات ودور اللهو بقدر ما يستفظعون البكاء فيها ، وذلك ان طابع البكاء ديني أخروي ، وطابع الضحك دنيوي لا ديني ألم يقل سبحانه وتعالى : «وانه هو أضحك وأبكى ، وأنه هو أمات وأحيا » فوضع الضحك بحذاء الحياة والبكاء بحذاء الموت ، ويقول الجاحظ معللاً فضل خصال الضحك عند العرب انها تسمي اولادها بالضحاك وبسام وبطلق وبطليق ، واذا مدحوا قالوا : هو ضحوك السن ، وبسام العشيات ، وهش الى الضيف .. واذا ذموا قالوا : هو عبوس ، وهو كالح ، وهو قطوب ، وهو شتيم المحيا ، وهو مكفهر ابداً ، وهو كريه ومقبض الوجه ، وحامض الوجه ، وكأنما وجهه بالخل مفضوح ! »

ولا تظنن ان الضحك سواء عند بني الانسان ، فهو يختلف حسب العرق والمزاج والجنس فالضحك الفرنسي فيه خفة وحدة لاتينية ، والضحك الانكليزي مثلا ، بارد فيه تهكم وجمود وسخرية وتزمت ، والضحك المصري يتصف بالخفة والطلاوة وسرعة الخاطر والبديهة واصطياد النكتة حتى قيل : لو طافت نكتة على الانكليزي فانه يضحك منها ثلاث مرات : الاولى عندما يقال له : انه سيسمع نكتة ، والثانية عندما يسمعها ولا يفهمها ، والثالثة عندما يفهمها بعد نحو نصف ساعة ، اما المصري فهو لا يضحك من اية نكتة اطلاقاً لانه يعرف كل النكات : بل يكتفي بأن يقول الراوي في سخرية واستخفاف ... سمعناها !

مثال عن النكتة الانكليزية ما روي برناردشو : اقيمت مرة بلندن حفلة راقصة رصد ريعها لمشروع خيري . وكان شو ضيف الشرف في الحفلة . وانقضت فترة طويلة ولم ينهض ليراقص احدى الحسان اللائي غصت القاعة بهن مع ان امنية كل واحدة منهن ان تفوز بشرف مراقصة هذا الكاتب الشهير . واخيراً تقدم شو من عجوز شمطاء دعاها لمراقصته ، فلبت فرحة مزهوة ، وفيما هو في حلبة الرقص قالت له السيدة : هل تسمح يامستر شو بان تفسر لي معنى اعراضك عن جميع من ترى من هؤلاء الحسان واختيارك لي وحدي مع اني اقبح سيدة بينهن فأجابها ببرود ... ألسنا في حفلة خيرية .

قالت حسناء لشو ، وكانت من المعجبات به : آه يامستر شو لو تقبل بان تتزوجني لجاء ابننا مثالا للكمال ، اذ يأخذ عنك الذكاء الحاد ، وعني الجمال الذي تراه . فأجاب اخشى ان يحصل على جمالي وذكائك !

والضحك الشرقي يعتمد على العموم على التلاعب اللفظي او المعنوي تارة او الاشتقاق اللفظي او تحريفه او اللجوء الى التضاد . وكلكم يعرف النكتة المشهورة حين سأل احدهم صاحبه عن زوجته فأجاب :

حية تسعى !

فجاء المصري فوضع فيها من روحه فصارت .

ازاي بنتك ؟

حية « تبوس ايدك » !

أو قول البابلي حين سمع مغنياً يقول : اهل السماح الملاح دول فين اراضيهم ؟ فأجاب على الفور « في البنك العقاري »

وكان البابلي يستثقل ظل رجل اخترع آلة الترويق الماء فقال :

بقى يا اخواننا الراجل ده يروق الميه ويعكر دمنا .

أو قصة جماعة الازهريين الذين ذهبوا الى وزير معروف بالنكتة والدعابة فطلبوا اليه ان يتوسط في ارسالهم في بعثة الى اوروبا اسوة بطلاب الجامعة فضحك وقال :

اين نرسلكم ؟ الى الفاتيكان ؟

او نكتة ذلك القاضي الذي قال للشاهد :

قصدك تقول انك شفت المتّهم يقتل حماته وفضلت واقف تتفرج من غير ماتفكر في التدخل والمساعدة ؟

ــ وأساعده ليه ... ماهو بقتلها كويّس !

والضحك عند السوري فيه نعومة شرقية وتغليف وهمز ولمز ووخز يفوق أحيانا وخز الابر والمناخس .

والنساء يختلفن في ضحكهن عن الرجال :

فالمرأة تضحك بسهولة ، ولأتفــه الاسباب حتى سأل سائل :

هل تعرف من يضحك بدون سبب ؟

فأجيب : نعم المرأة ذات الاسنان الجميلة !

على ان المرأة لاتجيد الاضحاك ، الا في عدوى الحرارة الضحكية التي تنبعث منها ، وهي قديرة على كشف الجوانب المضحكة في الاشياء ، ولكنها عاجزة عن ابتكارها واعطائهـا شكلاً محسوسـاً ، ولاشيء ابعد عن طبيعة المرأة كالروايات التمثيلية الهزلية الملحنة ، او التمثيليات المسرحية المضحكة ، لان الاضحاك إعمالٌ للذكاء والعقل واسكاتٌ للانفعال والتأثر والذكاء النسوي قائم على التفهم لاالابداع ، فـالقلب بعكس الرأس بعيد عن الضحك ، والحسّ والعاطفة والتأثر أعــداء الضحك حتى قال احدهم : « ان الحيــاة العوبة لمن يفكر ، مأساة لمن يُحِس » . وليس معنى هذا ان النساء اكثر حساسية من الرجل ، فان المرأة اكثر استعداداً للضحك من الرجل ، ولكن الطبيعة اجــبرت المرأة على ان تحيا بقلبها ، اي بهذا القسم المرتبط بشعورها وجسمها ، وقد ثبت لي ان الضحُوكات هن بنات صغيرات او فتيات او شابات في زهرة العمر ، فان المرأة المسنّة ، او التي شعرت في قرارة نفسها أنها غدت مسنةً لاتضحك ابداً او قليلاً ، واذا صدف وضحكت فهي تضحك من نفسها وبشيء من المرارة ، فان مجرى الحياة قد امتص شيئاً فشيئاً قوة الذكاء حتى انقلب ما حدث لها وما فكـّرت به ومرّ بها من أحداث الحياة الى عواطف اي الى اشياء حسية لها جذورها العميقة في جسدها .

قيل ان سيدة مسنة ذهبت الى احد كبار المصوّرين ليصنع لها صورة .

فقال المصور : ثقي يا سيدتي أني سأرسم لــك صورة تنصفك تماماً !

فابتسمت العجوز وقالت في رقة : ليس الانصاف هو ما أطلبه من ريشتك ياسيدي بل .. الرحمة .

نعم ان المرأة متصلةٌ اتصالاً وثيقاً بالمــادة ولا شيء اصعب عليها من النظر الى العالم بتجرد ، ومن شروط الضحك الابتعاد عن الانفعال ، والتجرد شرط أساسي للاضحاك ، فالمرأة تشعر امام الكون بمسؤولية ذاتية تتحكم بكيانها تجاه اولادها وأسرتها ، فان وظيفتها الحقيقية اعطاء الحيــاة وحفظ النوع فعملها اذن بناء وتركيب وهذا ما يناقض تمـاماً الضحك القائم على النقد والسلبية والهـدم ، والضحك منعش ومريح ومصلح ولكنه في احواله القوية يشبه الانفجار والتوزع والتبدد ، فهو بالنسبة للمرأة مناف للجمال الذي هو اتساق وانسجام وتناسب فالضحك يسبب ولو موقتاً كشراً ، ويحـدث تشويهاً في هيئة الوجه من جراء تحريك عضلاته ، ولهذه الاسباب نجـد المرأة اقل ضحكاً من الرجل ، ويغلب على ضحكها الرنـين الصوتي اكثر منه التعبير في ملامح الوجه ، لان من وظائف المرأة في هذه الحياة ان تكون جميــلة ، وان تستجيب بجمال وجهها وجسمها لدواعي الروح والفكرة الجماليـة (الاستيتكية) ، فهي تقبل مثلاً ان يسخر الناس من لباسها ومن طباعها ولكنها لاتسمح بوجه من الوجوه ان يضحكوا من خلقها وجمالهــا الجسماني .

فالنساء اذن لا يُحسِنّ فن الاضحــاك ، فليس هناك رسامات هزليات (كاريكاتور) ولا نساء مهرجات ، ومـع ان الممثلات الهزليات كثيرات الا ان المضحكات منهن قليلات بـل نادرات ، واذا فرض على المرأة ان تؤدي عملاً مضحكاً فضمن مجموعة من الرجال ، ولكن اذا اوكل اليها وحدها دور هزلي مضحك ظهر عجزها عن الاضحاك بصورة واضحة .

نخلص من كل ماتقدم الى القول : ان الضحك تعبير عن الفرح ، اي الفرح الحقيقي ولا شأن لنا بذلك الضحك الاصطناعي الذي يشبه في آليته ذلك الضحك الذي كان يستعمل كنوع من انواع التعذيب في القرون الوسطى حين كان يمعنون في المعذب دعدغة في خاصرتيه وتحت ابطيه واخمص قدميه ، والمسكين يتلوى ويضحك ضحكاً عصبياً عاليا حتى يموت !

فالضحك الصادر عن النفس مفيد ، جسمياً ومعنوياً على السواء وبخاصة للاطفال الذين يجب ان تترك لهم حرية الضحك على الشكل الذي ارتضوه لأنفسهم لا الطريقة التي تروقنا نحن الكبار ، وعلينا ان نستثير فيهم مكامن الضحك وان نشجعهم عليها وقديماً قال الجاحظ : وكيف لايكون موقع الضحك من سرور النفس عظيماً ، ومن مصلحة الطباع كبيراً ، لان الضحك اول خير يظهر من الصبي ، وبه تطيب نفسه ، وعليه ينبت شحمه ، ويكثر دمه الذي هو علة سروره ومادة قوته ! »

لقد صدق الجاحظ فليس هناك اجمل من ضحك الصغار الرنّان الصافي ، صفاء الماس او مياه الينابيع ، فيه عفوية وبراءة فهو تفتح وليس كما هو عند الكبار مجهوداً يشوه خلقه ، أوحركة عنيفة تزعزع كيانا ، او صدمة فجائية تحدث اضطراباً .

قلت : ان العرب صنفوا الضحك ، فبدأوا بالتبسم وانتهوا بالزهزقة وهي ان يذهب بك الضحك كل مذهب ، وهذا النوع الاخير شائع في المجتمع العربي ذي الغرائز المكبوتة ، نراه ونسمعه في المسارح والمحافل ودور الغناء ، ويظهر ان للانسان حالات تشنجية معدية يخرج فيها عن طوره ، منها حالات الطرب الشديد او القهقهة الهذيانية التي تقارب الضحك العصبي الجنوني ، فالانسان لكثرة مايختزن في نفسه من العواطف القوية يصل الى حد يطغى فيه الضغط الداخلي على المقاومة فيحصل عنده مايسمى بالاختناق المتزايد المؤدي الى الانفجار الضحكي او البكائي او الطربي .

ومن غرائب التكوين انسان لكل ان طاقة محدودة في الهزات العاطفية لايمكنه تجاوزها دون الاخلال بالتوازن والوقوع في النقيض ، فشدة الضحك تبكي وتدمع العينين ، كما ان شدة الحزن توصل الى الضحك الجنوني .

وللضحك اسباب يتساوى امامها الصغار والكبار ، وإن كان الصغار اشد تأثراً بالاشارات والحركات ، لان تصور الاشياء عندهم حسي وافقهم العقلي المحدود عاجز عن استيعاب الدوافع النفسية والعقلية الموجبة للضحك .

وكما أن المفارقات أصل من أصول الضحك عند الكبار فهي ايضاً عند الصغار من عوامل الضحك والاضحاك ، فالولد ينظر الى أهله ، نظرة رهبة واحترام ممزوج بخوف اوبالاحرى هم الذين يريدون ان يظهروا بمظهر الجد والوقار منزهين عن الهفوات حتى اذا اخطأوا ، او بدرت منهم حركة او كلمة او اشارة تنقض هذا المظهر ، كأن يكسر الوالد صحناً ، او تسفح الأم قدح الماء على المائدة ، فان هذا التناقض بل هذا الهبوط من الوقار والرهبة الى حد المساواة والالفة يخلق عند الصغار مرحاً لامزيد عليه وضحكاً شديداً فيه شيء من الشماتة فلذلك يستحسن من الآباء والامهات الا يظهروا بمظهر المعصوم من الخطأ ، المتعالي عن كل عيب وهفوة .

قلت : إن للضحك اسباباً عديدة جهد علماء النفس في حصرها وتصنيفها ، وكلها صحيحة ، ولكنها على صحتها ووجاهتها لاتكتفي واحدة منها بذاتها بل تستعين بأخواتها لدعمها وسد جوانب النقص فيها ، وسوف لا اتعرض لهذه النظريات وانما اكتفي بالاشارة اليها اشارة عابرة .

ان التناقض الهابط كما يقول سبنسر سبب من اسباب الضحك ، أي ان الضحك يحدث بصورة طبيعية عندما يكون الوجدان مشغولاً بعظائم الامور فاذا به يهبط الى صغائرها ، كمثل عاشق يركع عند قدمي معشوقته يستعطفها باقوال عاطفية شعرية حتى اذا اراد النهوض لم يستطع ! وشبيه بهذا مارواه حافظ ابراهيم قال : دعيت مرة لانشاد قصيدة من شعري في حفلة جامعة ، فلما اكتمل الجمع وصعدت المنبر وشخص الناس بأبصارهم الي وحبسوا انفاسهم مصغين منتظرين ماسأقول انشدت البيت الاول من القصيدة كأحسن ماينشد شاعر ويظهر أنه كان بجانب مكان الحفلة اصطبل فنهق حمار نهيقاً منكراً تردد صداه في قاعة الحفلة ، فقطعت الانشاد حتى سكت الحمار فضحك الناس ، ولما عدت الى الانشاد عاد الحمار الى النهيق فقلت للحاضرين : إما أنا او هو ، فضج الناس بالضحك والتصفيق فقلت لهم : أنا جاد ولست بهازل ، لئن لم تسكتوه لأتركن المنبر ، ولما أقصي عن المكان اتممت انشاد القصيدة !

وقد اذكرتني هذه الحادثة ماروي عن ابي العتاهية حين

وقف يرثي الخليفة .

فقال : مات الخليفة ايها الثقلان !

فقال الناس : لقد نعاه الى الانس والجن !

ثم قال : فكأنني افطرت في رمضان .

والى جانب التناقض الهابط ، نجد التناقض بين فكرتين او صورتين ، فهو من موجبات الضحك على شرط ان يكون الشيئان المتناقضان متواترين كأنهما يخصان شيئاً واحداً حتى نتوهم في آن واحد ان الشيء كائن وليس بكائن ، فالقرد يضحكنا لانه يشبه الانسان وليس بانسان وقد يزداد ضحكنا اذا ألبسناه ثياب انسان لان التناقض يكون اشد وأقوى كما ان الاستكبار والتعالي على من نعتقد انهم اضعف منا مضحكان وبخاصة اذا كان الترفع مصحوباً بحركة مشعرة به . كان حافظ ابراهيم يقول : كان الشيخ محمد عبده (وقد عاشره اربعين عاماً) اذا استحسن شيئاً من شعري قال : مش بطال ! ولم يزدني على درجة مش بطال شيئاً ! وكان محمد المويلحي الكاتب المشهور يغيظه ان يقول الامام محمد عبده في مقالاته المؤلفة (مش بطال) فضرب له المويلحي مثلاً يدل على غيظه منه قال : لو ان رب العالمين جلس على عرشه يوم القيامة تحف به الملائكة المقربون ، وعن يمين عرشه الانبياء والمرسلون ، ومن ورائهم جميع البشر ، ويليهم جميع أنواع المخلوقات من الجن والشياطين والبهائم والوحش والطير ، ثم قيل للشيخ محمد عبده : ماتقول في هذا المنظر ؟ لما زاد على قوله : « مش بطال »

ومن اسباب الضحك ايضاً المفارقات على ان تكون مصحوبة بفكرة التدهور والسقوط ، ونعني بالسقوط الانتقال من معنى الى آخر ، او من صورة الى اخرى مع تناقص قيمة الأول ، اذ ليس هناك عواطف او افكار او اشخاص مضحكين بالذات ، ولكن الانحدار والسقوط هما مضحكان لأن من هذه العواطف والافكار والاشخاص من اذا رفع وصعد بعث على الاعجاب او البكاء عوضاً عن الاستخفاف والضحك ، وتبدو هذه العملية في فكرتين او شخصيتين في شكلين متميزين تجمعها نظرة واحدة اما ثابتة متواصلة او متأرجحة بين قوية وضعيفة ، فاذا هبطت القوية الى مستوى الضعيفة احدثت في نفوسنا صدى او دوياً عاطفياً يتجلى في هذا الرضى والسرور اللذين يستحوذان علينا عند الضحك او اكتشاف النكتة وفي اشباع الشعور بالانتصار والتفرق في اكتشاف عيوب غيرنا وجعلها غرضاً للضحك والاضحاك .

حدث عمر الفاخوري قال : لما زار حافظ ابراهيم بيروت ذهبت مع جماعة من الادباء في ضحوة من نهار للسلام عليه ، وكان كل واحد منا يذكر له اسمه حين يصافحه ، ولما انقضى وقت الزيارة نهضنا للانصراف فودع الجميع وطلب الي ان ابقى ، فسررت لايثاره لي على جميع من كان معي ، وتلاحق المسلمون عليه فكان كلما انصرف جماعة منهم أستأذنه بالانصراف فيستبقيني ، ثم قال لي في آخر مرة هممت بالانصراف : نتغدى معاً ياأستاذ ، فازداد سروري لهذه العناية الخاصة ، وبقيت معه وتركت عملي في الحكومة ذلك النهار ، وتغدينا معاً وهو يرسل النكتة تلو النكتة ، ثم شربنا القهوة واستأذنته بالانصراف بعد أن شكرته بأساليب متعددة فوقف وقال لي : شرفت ياأستاذ ، آنست ياأستاذ ، هل يمكنني أن اعرف الاسم الكريم؟ فبهت وكدت أصعق وقلت في نفسي يدعوني ويعزم علي ، ويؤثرني على جميع من زاره ولايعرف من أنا ، وغالبت نفسي وقلت له (عمر الفاخوري) فقال : اهلاً وسهلاً ياأستاذ عمر ، أنا والله سعيد بلقائك ، ياليتني عرفتك قبل الآن ، اذن لقل عتبي على الزمان ، اتدري لماذا احتفيت بك على غير معرفة ؟ قلت : لا قال اسمع اذن ، كنت أظن ان الله لم يخلق أقبح مني ، فلما رأيتك خاب والحمد لله ظني ، ووجدتك مثلي ان لم تكن اشد قبحاً فكيف لااكون سعيداً بلقائك ؟ فضحكت وضحك !

ومن النظريات التي عرفت رواجاً في القرن العشرين ، نظرية الفيلسوف برغسون في الضحك والاضحاك وخلاصتها أن الضحك ظاهرة انسانية ، وأن الجماد غير مضحك فالأشياء في عالم الجماد وعالم النبات غير مضحكة لأنها تحجب دوماً عن نفسها أي اننا لانلمح تناقضاً بين مظهرها ومعناها فالانسان والحيوان وحدهما مضحكان . ويقول برغسون في دستوره عن الضحك والاضحاك ان اوضاع الجسم الانساني وحركاته تضحك اذا ذكرنا هذا الجسم بآلة ميكانيكية ، وعليه تكون الصورة مضحكة اذا استطاع المصور ايهام الناظر ان المصور صنع من عدة قطع مركبة قابلة للتفكيك من داخل الشخص ، وان مجموع الشخص او كل عضو من اعضائه آلة صماء ركبت على انسان حي ، وكلما استطاع المصور التقريب بين الآلة والانسان الحي كان الاضحاك موفقاً ، كأن الشخص دمية نفخت فيها الحياة .

وفي الحياة اليومية مشاهد كثيرة مضحكة من هذا التصلب الآلي ، فالتقليد ـ وهو اول مرحلة الاضحاك عند الصغار ـ

مضحك لان حياتنا الروحية في انسياب وتغير مستمرين ، والتقليد يستند على الناحية الآلية الرتيبة الغريبة عن شخصيتنا الحية ، فان التوأمين المتشابهين مثلا مثيران للضحك ، وأن اشخاصاً متشابهين في اللباس والزي يقومون على المسرح بحركات متماثلة كأن ربطوا بخيط يحركهم شخص اختبأ وراء الستار مدعاة للضحك لأن كل توجيه للحياة في اتجاه آلي مضحك ، فالتصلب والسهو والجمـــود حيث تنبغي المرونة والانتباه والتكيف حسب الظرف عوامل مضحكة وعلى أساس هذه الآلية فان التكرار والاعادة اللذين نجدهما في الأدب والتمثيل من عوامل الاضحاك ، لاننا نجد تصلباً حيث نبغي مرونة موآتية للظرف ويعجبني في هذا السبيل قول البشري يصف رجلا نهماً :

.. وكيفما كان الامر فان هذا الرجل مايزال انساناً وديعاً ، أنيس المحضر ، ظريف المجلس ، حتى يحضر الطعام ، فاذا حضر جن جنونه ، وثار ثائره ، وخيفت بوادره ، وتغير خلقه ، وتنكرت صورته ، وأمسى منظره مفزعاً مرعباً ، ولو قد رايته يفري الفري ، ويلتهم اليابس والطري ، لخلت ان كل شيء فيه قد استحال فماً ، فهو يأكل بفمه ، ويأكل بعينه ويأكل بانفه ، لاتراه يلوك لقمة او يحرك للمضغ ضرساً ، بل انه ليكورها ثم يقذف بها في حلقه فتكاد تسمع رنينها في قرارة بطنه ... !

نحن نضحك مثلا لهـذه النكات التي يسود بعضها الجمود ، والآخر عنصر المباغتة والمفاجأة والتأرجح بين حالتين احداهما عادية والاخرى غريبة غير متوقعة :

قالت الزوجة لقرينها العالم الذي اشتهر بذهوله :

لا تنس ان تجلب معك حاجة للفئران من الصيدلية :

فأجاب : ما هـــذا الكلام ؟ اذا كان اكلنا لا يعجبهم فليأكلوا عند سوانا !

ومن هذه : دخلت السيدة على زوجها في المنزل وهي تضع على رأسها قبعة فاخرة غريبـة الشكل ، وما ان رآها زوجها حتى اغرق في الضحك الشديد فنظرت اليه زوجته وقالت بهدوء :

سأرى ما اذا كنت تضحك هـــذا الضحك عندما ترى فاتورة الخياطة .

ومن هذه : كانت ثلاث سيدات يتحدثن فأعطت احداهن تفاحة لغلام صغير وقالت له : اعطها لاحسن واجمل واحدة منا فتفرس الطفل في النسوة الثلاث برهة .. ثم اكل التفاحة !

وهكذا نرى ان الجمـــل المهيأة والتصلب الاصطناعي في الكلام والانتقال من الحقيقة الى المجاز وبالعكس كل ذلك من دواعي الضحك ، كما ان للضحك منطقاً يجعلنا نقبل المستحيل كحقيقة وهذا في غفلة من العقل والمنطق الانسانيين ، فالضحك ينقلنا ولو مؤقتاً بما يظهره من تناقض وضعف في الاشياء من حالة جمود الى حالة تحرر فنجد في هذا الانتقال فرجاً بعد شدة وراحة بعد رقابة وكد .

ابراهيم الكيلاني

لن أخون

شعر
السيدة عزيزه هارون

أنا لن أخون صديقتي
أنـا لن أخون . . .
رلو وجـــدت بك الجنون
أتحبني ..؟
بالأمس كنت تحبها ...
أتـودني ..؟
بالأمس كنت تودها ...
البدر يشهد كم فُتنتَ بها
وحلفت أنك لن تخونَ ، فخنتها ...
أنا لن أخون صديقتي
أنـا لن أخون ...

* * *

مـاذا تقول وتدعي ..؟
يـا ألمعي !!!
أتريد أن تحيا معي ..؟
هيهات تلمحُ أصبعي .!!
دع عنك هذا الوهم ، بل هذا الجنون ...
أنـا لن أخون صديقتي

* * *



أنـا لن اخون ...
كم حدثتني عن هواك ، وعن جنونك
الهوى ...
كيف انتهى هذا الجنون ..؟
هل غاب عنها الحسنُ ، هل زال الجمال
هي كالغزال ...
ويح الرجال . . .
كم يجرمون ...

ادب التحرر العربي

بقلم :

الدكتور جودة الركابي

اخذت البلاد العربية منذ فجر النهضة الحديثة تستيقظ من سباتها العميق ، وتتطلع الى عالم جديد يعبق بأنفاس الحرية بعد ان اتى عليها قرون وهي تتخبط في ظلمات الجهل والظلم ، وبعد ان سامها المستعمرون انواع الاضطهاد والاستعباد . وقد لعب الادب دوراً هاماً في تحرير الامة العربية مما نالها من عنت الظالمين ، فكان الادباء يمهدون بأقلامهم للثورات المتتالية التي حررت جزءاً كبيراً من وطننا العربي ، حتى غدوا عنصراً هاماً في ايقاظ الوعي القومي وبيان المفاسد التي كانت تحيق بمجتمعنا ويرزح تحت عبئها المواطنون .

على ان هذه الاصوات التي كان يسكتها الموت بعد ان تقضي حياة مجيدة لم تكن لتنقطع بل كانت اصداؤها ترن في الاجيال ويتناقلها الابناء عن الآباء ، وكان لكل مرحلة شعراؤها وادباؤها ، ولذلك لم ينقطع نشيد التحرر ، بل ظل متصلا من جيل الى جيل ، ظل متصلا بما كان يتردد من اصداء قديمة قضى مغنوها ، وبما كان ينبعث من نغمات جديدة على افواه شعراء كل جيل .

ويطل علي اسم ضخم من بين هذه الاسماء التي اسهمت في بناء ادبنا التحرري الحديث هو الشيخ ابراهيم اليازجي ، فقد ولد هذا الاديب في بيروت عام ١٨٤٧ ودرس على ابيه الشيخ ناصيف اليازجي ثم استكمل ثقافته بمطالعاته الشخصية حتى غدا علماً من علماء اللغة في عصره ، وقد توفي سنة ١٩٠٦ في الوقت الذي كانت فيه البلاد العربية تئن تحت سيطرة الحكم العثماني . وقد نظم هذا الاديب عدداً من القصائد التي اثارت النخوة في النفوس ، ومن بينها القصيدة التالية التي نشرها يومئذ سراً وهي تعتبر من الصيحات الاولى التي اهابت بالعرب ليستيقظوا من الحكم الدخيل ويثوروا على العيش الذليل ، يقول الشاعر :

تنبهوا واستيقظوا يا أيها العرب
فقد طغى الخطبُ حتى غاصت الركب
فيم التعلل بالامال تخدعكم
وانتم بين راحات القنا سُلُبُ
الله اكبر ! ما هذا المنام ؟ فقد
شكاكم المهد ، واشتاقتكم الترب
الفتم الهون حتى صار عندكم
طبعاً ، وبعض طباع المرء مكتسب
وفارقتكم ، لطول الذل نخوتكم
فليس يؤلمكم خسفٌ ولا عطب
لله صبرُكم ، لو ان صبركم
في ملتقى الخيل ، حين الخيل تضطرب
فشمروا وانهضوا للامر وابتدروا
من دهركم فرصة ضنت بها الحقب
خلوا التعصب عنكم واستووا عصبا
على الوئام ، لدفع الظلم نعتصب
هذا الذي قد رمى بالضعف قوتكم
وغادر الشمل منكم وهو منشعب
وحكم العلج فيكم مع مهانته
يقتادكم لهواه حيث ينقلب
بالله ياقومنا هبوا لشأنكم
فكم تناديكم الاشعار والخطب !

ونلاحظ في هذه الاقوال ان الشاعر يدفع قومه الى التنبه والاستيقاظ ، وهي صرخة يطلقها الشاعر في وجه الاستعمار التركي وقد راعه ان يرى قومه صابرين على الذل فأعلنها ثورة عارمة في وجه هؤلاء الذين كانوا يبغون القضاء على الروح العربية ، وقد كان لهذه القصيدة يومئذ تأثير كبير ، وقد تلقاها المستعمرون بالغضب لانها كانت من اولى الصيحات العربية التي بدأت تهز الشعور العربي وتحرك في النفوس ما كمن من لهيب النخوة العربية وضرام العزة القومية .

وهناك ايضا علم آخر من اعلام ادب التحرر هو معروف الرصافي فقد نشأ هذا الشاعر في بغداد في أسرة فقيرة وقرض الشعر وهو حديث السن ، واشتهر منذ فجر حياته بقصائده التي هاجم فيها الحكم الحميدي كما اشتهر بقصائده التي هاجم فيها العرش العراقي الفاسد وكان صريحا في آرائه قويا في هجومه ، أثار في نفوس قومه الحمية وأحيا فيها ماخبا من ثورة .

ونحن لانزال نذكر قصيدته « تنبيه النيام » التي نظمها ايام السلطان عبد الحميد فحمل عليه فيها حملة شديدة واخذ يستحث بلاده الى النهوض واسترجاع المجد المفقود فيقول :

عجبت لقوم يخضعون لدولة
يسوسهم بالموبقات عميدها
وأعجب من ذا انهم يرهبونها

واموالهــا منهم ومنهم جنودها
بني وطني مـالي اراكم صبرتمُ
على نوب أعيا الحصاة عـديدها
ألم تروا الاقوام بالسعي خـلدت
مآثر يستقصي الزمان خلودهـا
وساروا كراماً رافلين الى العُلا
بأثواب عزٍّ ليس يبـلى جديدها
ومن رام في سوق المعالي تجـارة
فليس سوى بيض المساعي نقودها

اما الشاعر جميل صدقي الزهاوي فهو ايضا ممن كان لهـم يدٌ طولى في بعث نهضتنا القومية ومد ادبنا الحديث بالنفحة التحررية والسمة التأملية ، لقد مني هـذا الشاعر من عصره بفساد السلطان واستطالة الجهل ، فوقف موقف المصلحـين وجاهد وغـامر في سبيل العروبه حتى ذاق السجن والنفي في زمن الاتراك وقوبل بالاعراض والاهمال زمن الحكم الفيصلي وكان له في الميادين الاجتماعية جرأة نادرة ، لقد كان الزهاوي حركةً ذهنية ثائرة ورائداً من رواد النهضة العربية التي مهد لها بفكره وشعره فلنسمعه يبكي شهـداء العرب الذين شنقهم الاتراك في دمشق وبيروت سنة ١٩١٥ فيقول :

على كل عود صاحب وخليل
وفي كل بيت رنة وعـويل
وفي كل عين عبرة مهـراقة
وفي كل صدر حسرة وغليل
كأن وجوه القوم فوق جذوعهم
نجوم سماء في الصباح أفول
كأن الجذوع القائمات منابر
علت خطباء عودهن تقول :
سموٌ كما شاءت نزار لولدها
وبُعدٌ كما شاءَ الفخارُ وطول

* * *

مشوا في سبيل الحق يحدوهم الردى
وللحق بين الصالحين سبيل
ستبكي على تلك الوجوه منازل
وتبكي ربوع للعـلى وطلول
وأعظم بخطب فيه للمجد شقوة
وفي جسد العلياء منه نحول
أبعد بني قومي أنهنه عبرتي
وأمنعها ، إني ، إذن ، لبخيل



وهناك ايضاً شاعرانا الخالدان حافظ وشوقي اللذان غردا ألحان الوطنية وعبرا عن أماني شعبهما وأصبحا من أعـلام ادب النهضة فسجلا أحداثها وصورا مختلف تياراتها الادبية والفنية والاجتماعية . وهما اللذان بعثا في شعرهما جديد الشعر وغنيا آلام مصر وسورية وربطا بينهما برباط الوحدة منذ القديم وقبل ان يقف حافظ ليقول :

هذي يدي عن بني مصر تصافحكم
فصافحوها تصافح نفسها العرب

وبين هذه الكوكبة من الشعراء الذين مدوا أدب التحرر بفيض قريحتهم يطل علينا وجه الشاعر خير الدين الزركلي ، شـاعر الثورة السورية ، انه ابن دمشق ولد فيها ودرس في مدارسها الاهلية ، وطالع دواوين الشعر ، قديمه وحديثه ، حتى تمكن من ناحية اللغة والادب ، وقد بقي في وطنه حتى احتل الفرنسيون هذه البلاد فنزح عنها الى الديار المصرية .

أجمل مافي شعره قصائده الوطنية التي قالها في عهد الثورة السورية عام ١٩٢٥ وفيها صور بطولة الشعب وتصميمه على نيل استقلاله ، فكان عندليب الوطن المعذب ، غنى جراحه في مثل هذه الابيات :

النـار محدقة بجلق بعدما
تركت « حماة » على شفير هار
تنساب في الاحياء مسرعة الخطى
تأتي على الاطمار والاعمار
والقـوم منغمسون في حمآتها
فتكا بكل مـبرأٍ صبار
الطفل في يد أمه غرض الاذى
يُرمى ، وليس بخائض لغمار
والشيـخ متكئاً على عـكازه
يُرمى ، وما للشيخ من أوزار
صبرت دمشق على النكال لياليا
حـرم الرقاد بها على الاشفار

ويتابع الشاعر وصف الفظائع التي ارتكبها الفرنسيون في دمشق اثناء الثورة الى ان يصف في النهاية نجدة الشقيقة

البقية على الصفحة «١٦»

عرض حال

نجي

رقم « ٢ »

بقلم

محمد حيدر

من : ع - ع - ع

الى الاجيال المقبلة

الموضوع : تربوي (ملاحظات وقائع ، اقتراحات . حول التدريس)

قم للمعلم وفه التبجيلا

كاد المعلم ان يكون رسولا

هذا ما قاله الشاعر ، ولذا نلفت انظاركم ، حسب قواعد اللياقة ، للوقوف دقيقة واحدة ، احتراماً لشخصنا وتبجيلا للمعلم الذي نمثله ، فنحن معلم كما تعرفون . نحترف هذه المهنة منذ اربع سنوات . واننا سعداء بهذا العمل سعادة لا حد لها ، وان كانت تتخلله بعض المزعجات بين حين وحين : منها ما هو مرتبط ، وذو صلة وثيقة باسمنا ، ومنها ما هو صادر عن الطلبة .. والبقية من هـذه المزعجات ، منبثقة عن الانظمة والاساليب المطبقة على شؤون التدريس .

عندما تخرجنا من الجامعة ، تعينا في درعا .. ولا نزال . ودرعا بلد صغير يشعر الانسان فيه بالامن والهدوء ونظراً لصغر البلد ، فان الاخبار تنتشر فيها بسرعة البرق ، حيث لا يجد السكان شيئاً يتحدثون عنه او يملأون به فراغهم سوى الاخبار والحوادث الشخصية .. مهما كانت تافهة وطبعاً كان اسمنا ضمن قائمة الاخبار . فقد سبقنا اليها (نقصد اسمنا) وانتشر بين الناس وتناقلوه بسرعة مدهشة واخذ الناس والطلبة خاصة - كما بلغنا فيما بعد - ينتظرون بشوق ولهفة قدوم شخصنا الكريم : عصوية بن عكرمة العضروطي أو : عصوية أفندي حسب تعبير بعض ، او : هـ... العصويص ، كما قال بعض آخر ، وكأننا من الفاتحين او احد مشاهير النجوم (السينمائية طبعاً) . ونظراً لما مر بنا من سابق ، فقد تنبأنا بشيء كهذا ، لذا وجدنا من الافضل ان نتأخر قليلا عن الموعد المضروب لافتتاح المدارس ، ريثما تهـدأ الضجة حول اسمنا الملعون .. حيث يكون الطلبة مشغولين بالدروس . وهذا ماحدث فعلاً : فبعد خمسة عشر يوماً قدمنا الى درعا ونحن مطمئنون الى ان اسمنا لن يثير شيئاً من الدهشة بين الناس ، لانهم الفوه خلال هذه المدة وشبعوا من الحديث عنه .. كأغلب الفضائح ! ! وتم كل شيء كما حسبنا . فعندما دخلنا المدرسة في صباح اليوم التالي من قدومنا ، تجمهر الطلبة واخذوا يرمقوننا بشيء من الفضول اول الامر .. ثم بنوع من الشفقة عندما رأوا على وجهنا علائم الذل والمسكنة والرغبة في الهدوء ، وكأنهم يرثون لحظنا التعس الذي اوقعنا في هذا الاسم ولاول مرة شعرنا ان اسمنا ليس كريهـاً الى الحد الذي تخيلناه من سابق . وقد حفظنا هذه البادرة الطيبة للطلبه ، فعاملناهم فيما بعد بكل حب واخلاص .

وقد كانت السنة الاولى مليئة بالعمل . وعانينا صعوبات جمة من التدريس : كتحضير الدروس ، وتصحيح الوظائف ، والمذاكرات الشفوية والامتحانات ، واعـداد الجزازات « نوتات » . ولكننا ، ورغم هذا المجهود ، كنا نشعر بلذة فكرية عميقة ، لانشغالنا الدائم ولادائنا واجبنا على اكمل وجه ممكن . وقد حاول الطلبة ان يعلموا شيئاً عن « سك » اسمنا الغريب .. فكنا نقابلهم بابتسامة (طبعاً عذبة) ونجيبهم اجابات غامضة لايفهمون منها اي شيء !! وعندما كنا نمر في الاسواق (ونادراً مانفعل ذلك) كان الناس يقفون على الارصفة كحرس الشرف وهم يحدجوننا بنظرات السخرية والهزء ، ونسمع همسات خفيفة (طبعاً من وراء ظهرنا) عص .. عص ، طي .. طي .. ولكننا



كنا نمشي مرفوعي الراس ونوزع الابتسامات (وكانت غير عذبة) وكأنهم فعلاً ينتظرون قـدومنا لالسخرية ، بل ليؤدوا فروض الولاء !!

هذا ماحدث لنا في السنة الاولى .. ولكن السنة التي تلتها كانت اقل صعوبة واكثر توفيراً في المجهود : حيث تمرسنا بالعمل ، وحفظنا بعضا من الموضوعات . كما ان اهتمام الناس

باسمنا قد تضاءل الى حد بعيد . اما السنة الثالثة فقد كانت بلا عمل تقريباً ، فقد حفظنا معظم الدروس .. وأصبحنا نرددها بطريقة آلية ، كما اننا اكتشفنا « اسرار » المهنة ، فصرنا نقلل عدد المذاكرات . ونكتفي بقراءة الكتاب .

اما السنة الرابعة ، فقد اصبحنا بلا عمل على الاطلاق . حيث تحول فكرنا الى اسطوانة او شريط تسجيل .. يعيد كل شيء بمجرد وضع الابرة عليه . فعندما تشير الساعة الى الثامنة الا دقائق (نحن نسكن قرب المدرسة) نجـد نفسنا ننطلق كالنابض .. ونتحرك تلقائياً ونفتح الباب ، ونذهب الى المدرسة وما ان ندخل الصف ونقرا عنوان الدرس ، حتى نبدأ الكلام المسجل .. المخزون منذ سنوات . نعيده حرفا بحرف دون تغيير او تبديل . حتى اننا كنا نقوم بنفس الاشارات والحركات الماضية . وباختصار : تحولنا تدريجيا الى آلة .

لقد اصبحنا هذا العام بدون عمل : لاتحضير ، لاوظائف لاتصحيح .. لاشيء على الاطلاق . وبالتالي اصبحنا نشعر (ونحن مسرورون بذلك) وكأننا نتناول راتبنا بدون مقابل . وهكذا صرنا نشعر بالسأم والملل والفراغ . ولكن الذي كان يعيد الينا نشاطنا ، ولو بصورة بسيطة ، ان المسؤولين في وزارة التربية ، كانوا يعمدون الى تغيير الكتب المدرسية كل عام ، الامر الذي كان يدفعنا الى القاء نظرة (طبعا عابرة) على الكتب الجديدة . وهذا يضطرنا لتبديل بعض الكلمات او الفقرات خلال القاء الدرس ، لتتلاءم مع الكتاب الجديد ، مع العلم ان الموضوعات في الكتب الجديدة هي نفس الموضوعات القديمة .. دون تغيير .

وبالواقع ، فان الذي تبدل ، لاالموضوعات او المعلومات بل الاسلوب فقط . مثلا ، بدلا من القول : « ينقسم الاستقراء الى قسمين . » عمد المؤلفون الى تحريف العبارة كما يلي : « وقد اصطلح المناطقة على تقسيم الاستقراء الى قسمين .. » . انهم لازالوا يقدمون وجبة الطعام نفسها .. ولكن في صحون مختلفة ، وبواسطة خدم جدد . وقد دفعنا الفضول (لاغرابة في ذلك) الى التساؤل عن الحكمة في مثل هذا التبديل !! فاكتشفنا ان كل مؤلف يتقاضى آلاف الليرات على تأليف كتاب واحد ، دون ان يقدم جديداً يذكر . وهذا معناه (وملاحظتنا لاتخلو من الحسد) انه يأخذ اجرة دون مبرر ولما كان « **الاقتصاد** » عماد الحياة الحديثة (كما يقول بعض !!) فان هذا العمل يشكل خللاً كبيراً في الميزان الاقتصادي العام .. الامر الذي يجب تداركه والانتباه اليه .

ونحن ، لا اعتراض لنا على اعطاء اجور للمؤلفين ، فهذا واجب وحق تفرضه مباديء العدالة وقوانين العمل ، ولكن الذي لاحظناه ، كان غاية في الغرابة !! حتى ان الطلبـــة رغم هبوط مستواهم العقلي ، ادركوا نفس الظاهرة العجيبة التي ادركناها نحن وهي كما يلي :

يكلف المسؤولون احد الاشخاص بتأليف كتاب ما .. فيؤلفه ويتناول عليه اجراً ، وهذا امر لا غبار عليه . ولكن الذي يحدث ، هو ان المسؤولين يكلفون في العام التالي مؤلفاً آخر غير الاول ليقوم باختصار الكتاب الذي وضعه المؤلف السابق . وكل مايفعله الكاتب الجديد حسب مقارنتنا لمختلف الكتب هو انه يحذف فصلا من هنا .. وفصلا من هناك .. وفقرة من هذه الصفحة ، وجملة من تلك .. ويقدم تلخيصه ويتناول اجراً عليه !! الامر الذي دفعنا للتفكير بهجر مهنة التدريس (رغم غباء شخصنا) الى احتراف مهنة « التلخيص » !

وسؤالنا : من هو الذي اقر الكتاب السابق ؟ ثم من هو الذي امر باختصاره ؟ فاذا كان الكتاب **الملخص** افضل فعلا من الكتاب السابق ، فكيف سمحوا لانفسهم باقراره ؟ واذا كان الكتاب السابق اصلح وهذا ما يحصل دائماً ، فكيف .. وبأي مبرر ، قرروا اختصاره ؟

أليس من العبث اهدار هـــذه الاموال الطائلة على امور كهذه ؟

ويأتي عام آخر .. فيعمدون اما الى اختصار « التلخيص » السابق ، او الى اعادة « التلخيص » الى ما كان عليه . أي يعودون الى الكتاب الاول نفسه . وتترى البلاغات بصورة دائمة لحذف فصل .. واضافة فصل .. !

وخوفاً من افتضاح الامر ، (او خجلا كما سمعنا) يلجأ المؤلف الجديد ، وهو غـــير الشخصين السابقين ، الى اسلوب لا يخلو من براعة وذكاء !! حيث يعمد الى تحريف بعض الجمل وتبديل اسلوبها ، ووضـــع فقرة مكان اخرى .. فيبدو الكتاب وكأنه حقاً جديـد . ومن البديهي انه يتناول نفس الجعالة التي تناولها المؤلفان السابقان . حتى اصبـــح المدرس والطلبة ايضاً في حيرة دائمة .

يحدث كل هذا دون ان يكلف احدهم نفسه اي مجهود . اذ تبين لنا خلال مقارنـــه الكتب بعضها ببعض ان الاخطاء المطبعية مثلا الموجودة في الكتاب الاصلي تتكرر على التوالي

في كل الكتب التي اتت بعده . حتى الاسطر .. تعاد نفسها ، في كافة الكتب – فاذا بديء على سبيل المثال احد الاسطر بما يلي : « يوجد علاقة بين الاحساس .. » وانتهى ب : « هو من طبيعة فسيولوجية » . فاننا نجد نفس السطر يتكرر دائماً دون زيادة ولا نقصان !

ولما كثر التنازع بين المؤلفين ، عمدوا الى اجراء جديد ، وهو اقامة « شركة » فيما بينهم . فالكتاب الواحد يشترك في تأليفه عدة اشخاص ، فيضع كل مؤلف فصلا على هواه . فيأتي الكتاب موقعاً بشكل عجيب .

وطبعاً يمكن التجاوز بقليل من التسامح عن مثل هذه الامور . ولكن الذي لا يمكن مطلقاً التساهل فيه ، هو ان بعض الابحاث عولج بطريقة خاطئة ، مما يسيء الى عقول الجيل الجديد الذي نعده للمستقبل . فقد عثرنا في احد الكتب على موضوع لا يمت بصلة الا من حيث الاسم للكتاب المذكور . ولما كنا لا نحب الخوض في تفاصيل جزئية وشخصية فاننا سنوضح الامر بمثال :

عندما نكون في مطعم (ان شخصنا يميل الى الحديث عن الاطعمة) وامامنا شيء من الفواكه ، ونطلب « سكينا » من الخادم .. فالمعروف باعتبارنا في مطعم (يسرنا لو كنا في مطعم) ان يعطينا الخادم « سكينا » صغيرة عادية مما يصلح للفواكه – تصوروا مقدار الدهشة عندما يأتي الخادم وبيده سكين كبيرة مما يستعمل عادة في المسالخ .. او شبيهة بالساطور الذي يستعمل في الافلام المرعبة !

نشعر ان المثال السابق لم يوضح تماماً ما نريد . لذلك سنضرب مثالا آخر . ولما كان شخصنا مختصاً بالفلسفة فسنضرب مثالا من هذا الميدان !

افرضوا ان الموضوع المبحوث هو « **الحق** » . ان هذه الكلمة تأخذ معاني متعددة ، وذلك بحسب العلم الذي تستعمل فيه . فكلمة : **حق** في العلوم الدينية صفة من صفات الله او من اسمائه . او القرآن . وفي الاخلاق هي البحث في الحق كقيمة اخلاقية عليا : تعريف الحق ، انواعه ، الحق والقوة الخ .. اما في المنطق ، فكلمة : **حق** ، او **حقيقة** ، كما لو تستعمل عادة ، تعني البحث في الوسائل والطرق المؤدية للوصول الى المعرفة اليقينية .. او التطابق التام بين الحكم وبين الموضوع . فما قولكم لو عثرنا في كتاب للاخلاق تحت عنوان : **الحق على المعنى المنطقي لهذه الكلمة** ؟! وهذا ما حصل معنا بالذات .

وكم نتمنى ان نكون مخطئين ، فعلمنا محدود بالنسبة للكبار . (رغم هذا الاعتراف نعتقد ان شخصاً ليس بليداً كما يتصوره الآخرون) .

وبما ان العصر الحديث يتجه اتجاهاً آلياً بحتاً ، فقد حسبنا اول الامر ان مثل هذه الامور جزء من المؤامرة الكبرى التي تحاك ضد الفلسفة باعتبارها العلم الوحيد الذي يمكن ان ينقذ الانسان من براثن الآلة ويعيد اليه لونه الانساني . ولكن خاب ظننا !! اذن تبين لنا ان كافة الكتب المدرسية تعاني مثل هذه الاخطاء . فقد قرأنا في احدى الصحف اليومية منذ ايام كتابا موجها الى وزارة التربية يشير فيه كاتبه الى خطأ شنيع وقع في احد كتب القراءة المقررة على الطلبة ، فقد عمد المؤلف او شركة المؤلفين الى اقتباس بعض الصفحات من كتاب « طبائع الاستبداد » للمرحوم عبدالرحمن الكواكبي . فأخذوا عبارة من هنا وعبارة من هناك .. والصقوا الجميع . فاذا النتيجة جداً مدهشة جداً !! لقد اصبحت العبارات المقتبسة – بفضل عبقرية القابسين – توحي بأن صاحبها كافر !! مع ان المرحوم الكواكبي كان على النقيض عدا ذلك : فالعبارات نفسها كما وردت في « طبائع الاستبداد » لم تتضمن هذا المعنى على الاطلاق !

وقد سمعنا عن حوادث مماثلة في كتب التاريخ والجغرافيا والرياضيات . الامر الذي يجعل وقع المصيبة هيناً علينا ، باعتبارها مشتركة بين الجميع .

فاذا كنا ننبه .. ونطلب تحاشي هذه الاخطاء في المستقبل لدوافع اقتصادية بحتة فانه لا يسعنا (نقصد شخصنا) الا الاشادة بفضل هؤلاء المؤلفين وان نوجه اليهم عميق الشكر والامتنان !! حيث يدفعوننا بين حين وحين للعودة الى المراجع الاصلية للتحري عن صحة الموضوع الذي نقرأه ، الامر الذي يجدد من نشاطنا ويجعلنا في حالة بحث مستمر وعلى اتصال دائم بمصادر الثقافة . وهذا يقضي على شعور السأم والملل الذي اخذ يلازمنا في الفترة الاخيرة .

وبالمناسبة ، فقد قرأنا منذ مدة قصيرة ، بلاغا تربويا حول اعتزام المسؤولين تغيير كتب شهادة الدراسة الثانوية – وقد توجه البلاغ نبدأ الى المعلمين لابداء ملاحظاتهم حول الكتب القديمة . ولما رغبنا في ارسال ملاحظاتنا ، أقنعنا بعض الزملاء بأن القضية حبر على ورق . على كل حال ، نرغب الى وزارة التربية ان تتحاشى الاخطاء المذكورة اعلاه .

إن مثل هذه الاخطاء، لن تحدث في المستقبل .. في الحضارات الآتية القادمة حيث لن تكون هناك كتب !! لأن محطات الارسال، او الاشرطة المسجلة، ستتولى نشر الثقافة واعطاء الدروس .. وتصحيح الوظائف ان الالة لا يمكن ان ترتكب مثل هذه الحماقات، التي نقوم بها .. نحن البشر اننا واثقون من ذلك؛ فقد سمعنا ان العلماء اخترعوا دماغاً اليكترونياً، يستطيع ان يحل كافة العمليات الحسابية المعقدة بسرعة زائدة، وان يقرأ الشعر ويرسم اللوحات الفنية .. ويبدي اعجابه بفتاة جميلة — باختصار: يستطيع ان يحل بكل بساطة مكان الانسان !!

لقد استطاع عالم ايطالي — كما قالت الصحف — ان يعبيء كتاباً عن الثورة الفرنسية في أسطوانة، الامر الذي يدفع الحضارة خطوات واسعة الى الوراء !!

لقد وصمنا بعض الرفاق بالرجعية، بأننا ضد التقدم!! وقد رغبنا ان نناقشهم لندفع التهمة: بأننا لسنا ضد الآلة، الههم المعبود . ولكننا ضد تحول الانسان الى قواعد الميكانيك: ان نفكر بأسلوب ميكانيكي .. ان ننظر الى الناس على اساس من منطق الالات .. ان نضيء الفكر بالكهرباء والنيون!!!رغبنا في ذلك، ولكننا آثرنا السكون . لاننا نشعر بأننا ادنى منهم منهم في ميادين العلم . (ان شعور النقص يلازم شخصاً منذ القديم) . ولكننا قرأنا منذ فترة مقالاً علمياً حول مستقبل الانسان، وفيه يرسم الكاتب صورة لما يمكن ان يبلغه العلم: ان الانسان في المستقبل، وفي ظل الالات، سيتحرر نهائياً — حسب تعبير الكاتب — من الجهود الفكرية والجسدية، سيصبح بلا عمل .. لا هم له سوى الكسل والاسترخاء !! اهـذا كل ما تريد ان تقدمه الالات؟ ان يجلس الانسان بلا شيء، سوى الكسل والفراغ ؟!

وقد تساءلنا عقب قراءة المقال: هل نحن رجعيون كما يقال ؟

نعتذر عن هذا الشرود لنعد الى موضوعنا الاساسي:

لقد حسبنا في البداية، ان شعور السأم (النقص في شخصنا المذكور) يلازمنا بصورة خاصة، واننا نتفرد به بين الزملاء. او انه من آثار الشخص الآخر الكامن في اعماقنا . ولكن التحريات التي اجريناها .. وبنتيجة الاتصالات الدائمـــة والاحتكاك المستمر مع بقية المعلمين، ثبت لنا انهم يعانون جميعاً نفس الشعور . كما ان الطلبة، من جهة ثانية، صاروا يشعرون بالملل من رؤية المعلم خلال سنوات متتالية دون تغيير . !! حتى ان بعضهم (كما لاحظنا) أصبح ينام خـــلال الدرس، والمعلمون بذات الوقت، ينتابهم شيء من النعاس للسبب ذاته . انها وسيلة جيدة للقضاء على الارق الذي يمكن ان يصاب به كل من الطلبة والمدرسين . واننا نتوجه بهـــذا الاكتشاف العظيم الى وزارة الصحة، باعتبارها الحريصة على صحة المواطنين .. عسى ان تفيد منه في معالجة الارق !!

هذا الكسل الدائم، والبقاء بدون عمل، كان ذا تأثير واضح على صحة المعلمين . فقد امتلأت كروشهم .. وازداد وزنهم بطريقة مزعجة، حتى ان بعضهم (باستثناء شخصنا، حيث اننا مغرمون بالاطعمة .. وبالسمنة التي نعتبرها من علائم الوجاهة) اخذ يتبع نظاماً غذائياً معيناً للتخلص من السمنة المتزايدة التي تجعلهم عرضة للوقوع في امراض القلب كما تقول تعاليم الطب .. وبالتالي يكونون فريسة للموت المبكر، الامر الذي يتناقض كل التناقض مع حرص دوائر الصحة على صحة المواطنين .

ان دوائر الصحة، تبذل كافة الجهود، من اجل رفع المستوى الصحي للمواطنين، لاطالة أجلهم المتوسط، لان ذلك يؤدي، كما يقول علم والاجتماع، الى زيادة مستوى الانتاج . ولكن القضايا التي اشرنا اليها، تتناقض تماماً مع جهود وزارة الصحة !! واننا نستغرب كيف يمكن ان تقوم احدى الدوائر الرسمية بعمل يتناقض مع جهود دائرة رسمية اخرى . الامر الذي يدفعنا لتذكير وزارة التربية، بأنها بعملها هذا، تحطم كل الجهود التي تبذلها دوائر الصحة من اجل العناية بصحه المواطنين .

وهذا التناقض القائم بين دائرة واخرى، لا يقتصر فقط على المجال الذي ذكرناه، بل انه موجود في بقية الدوائر . وعلى سبيل المثال: فان كتب الاخـــلاق، والتعاليم الاخلاقية .. وتنبيهات وزارة الصحة، تحذر الطلبة دائماً من التعود على العادات السيئة، كشرب الخمر، والدخان .. لاسباب صحية واخلاقية واقتصادية . ولكن الدولة التي تشرف على كتب الاخلاق وعلى الدوائر الصحية، هي نفسها التي تشرف على دوائر حصر التبغ، وتعطي رخصاً لبيع الخمور انها تسمح ببيع الخمر والدخان اللذين يعودان بأفدح الاضرار على صحة المواطنين واخلاقهم، كما يقولون، ولكنها من طرف آخر، تبذل كافة الجهود لرفع المستوى، الصحي والاقتصادي

فكيف يجوز وقوع مثل هذه التناقضات في العصر الحديث !! هذا العصر الذي تسوده قوانين الالة في كل ناحية من نواحيه !!

ومن المعروف ، كما اخبرنا موظف في دوائر المالية ، ان الدولة تحصل على ارباح ضخمة من بيع التبغ ومن رسوم الخمور . وهذه الارباح احدى الدعامات الاساسية في اقتصادنا الحديث .

لقد وجه الطلبة الى شخصنا اكثر من سؤال حول هذا الموضوع . (خاصة وان شخصنا يدخن باستمرار) ولما كان من غير الممكن في الحضارة الحديثة الاستغناء عن التبغ والخمر وحلًا لهذا التناقض ، نقترح على الدولة ان تعمد الى الغاء كتب الاخلاق .. والى الاستغناء عن الدوائر الصحية بصورة نهائية ، الامر الذي يعود عليها بأعظم الفوائد الاقتصادية ، ويوفر عليها كثيراً من الجهود .

ان ملاحظاتنا هذه ، المتعلقة بزيادة وزن المدرسين ، وشعور السأم الذي يلازمهم ، واضرار التبغ والخمر .. كل هـــذه الملاحظات ، ستصبح بلا فائدة بعـد زمن قصير . فقد توصل العلماء الروس ، في ميدان الطب الجراحي ، الى تبديل بعض الاعضاء .. كالذراع ، والعين ، والقلب .. والى الصاق اعضاء جديدة ، بدلاً من الاعضاء التالفة . ولذا سيصبح من السهل من على الانسان بعد سنين ، ان يعمد الى تبديل رئتيه التالفتين من اثر الدخان والخمر ، والى تبديل دماغه السؤوم .. وبالتالي نستطيع ان نتلافى كل الاخطار الناجمة عن التدريس .. !!

ونغتنم هذه الفرصة ، لنتوجه بعميق الشكر الى الروس ، الذين يساهمون اكثر من غيرهم ، في تحويل الانسان الى آلة .

وبالمناسبة ، كنا (نقصد شخصنا) نعتزم التقدم بطلب مسبق ، لاستبدال بعض اعضائنا خاصة القلب والدماغ ، لولا اننا خفنا كثيراً نتائج هذا العمل ؛ فقد نقلت وكالات الانباء ، ان احد الاشخاص وضعوا له قلب قرد مكان قلبه التالف .. ونجحت العملية وعاش الرجل . ولكنه اخذ بعد ايام يتصرف كالقرود !! فهو يقفز ، ويتسلق الاشجار .. باختصار : اصبح قرداً في كل شيء .

ولا نعتقد ان منظرنا سيكون مريحا في هـذه الحال لأن السمنة الزائدة التي يعانيها شخصنا ، بالاضافة الى عيوبنا القديمة ، ستجعل من الصعب علينـــا ان نقوم بدورنا الجديد بمهارة . وبالتالي سنصبح حلقة متوسطة بين البشر والقرود !!

ان خوفنا ليس ناجما عن استحالتنا الى قرود ، فنحن نرحب بالعودة الى اصلنا الكريم !! كما يقول علم التطور ، ولكن خوفنا صادر عن مشكلة الدماغ . اننا نشعر برعب هائل عندما نتصور اننا صرنا نفكر كما تفكر القرود . ولما كنا نعتز بدماغنا الانساني (رغم سوئه) فاننا نفضل ، مؤقتا ، الاحتفاظ به .. الى ان تحين الساعة العظيمة ، ساعة الغد المشرق .. حيث يصبح بالمستطاع تركيب دماغ آلي ، وعندئذ سنقبل بكل رضى وارتياح .. تبديل دماغنا الانساني ، بدماغ ميكانيكي بحت !!

نعتذر من جديد عن هذا الشرود ــ سنرجع الى موضوعنا الاصلي : التدريس .

بعد ان قلبنا الامر على وجوهـه (بيننا وبين شخصنا ــ ودون تدخل من جانب الشخص الاخر الكامن في اعماقنا) استقر رأينا على توجيه بعض الاقتراحات لتلافي الاخطاء التي ذكرناها اعلاها . هذه الاقتراحات هي :

١ ــ الاستغناء نهائياً عن اي معلم يقضي خمس سنوات في التدريس . وذلك بأن توضع في غرفــة الصف ، خلال هذه السنوات ، آلات مسجلة ، تسجل كل مايقوله المعلم خلال الدرس . وتذاع الاشرطة او الاسطوانات على الطلبة فيمابعد.

٢ ــ في حال تعذر تحقيق الاقتراح السابق ، يجب ان ينقل المدرس باستمرار من مدينة لأخرى كل عام . وذلك ليجدد نشاطه . وعدا هذه الفائدة التربوية ، فهناك فائدة قومية وجغرافية بذات الوقت . حيث يوسع المعلم معلوماته الجغرافية ويطلع على ارجاء وطنه .. فتزداد ثقافته الاجتماعية ، وبالتالي يكون اقدر من غيره على معرفة مشاكل وطنه ، وعلى حل هذه المشاكل .

٣ ــ يجب ان يوزن المدرس في نهاية كل عام . وكل زيادة في وزنه ، يجب ان يدفع عنهـــا ضريبة باهظة ، الامر الذي يدفعه ، اما الى زيادة مجهودة في التدريس . او الى التقليل من مقادير الاطعمة التي يتناولها ، فتوفر بذلك كميات كبرى من الاغذية ــ وكلا الامرين يعود على الدولة بأعظم الفوائد . !!

٤ ــ الاتصال بالعلماء الروس ، واستقدام بعضهم للقيام بعمليات تبديل بعض الاعضاء عند المدرسين ، كالدماغ والبطن والقلب .. وذلك حسب الحاجة والضرورات الطارئة .

٥ ــ في حال تعذر تحقيق اي من هذه الاقتراحات ، نرى ضرورة زيادة ساعات التدريس المقررة ، وهو ابسط الاقتراحات ان القانون يحددها بعشرين ساعة في الاسبوع ، ولا نرى مانعاً (في حـــدود خبرتنا) من جعلها ثلاثين ساعة ، في

اذني الحدود .

ومن البديهي ان الحضارات الآلية المقبلة ، ستكون خالية من كل اخطائنا الانسانية ، لأن الالة ، او الدماغ الاليكتروني سيتولى كل شيء . فيتعلم الطلبة الدروس بواسطة محطات الارسال ، او اشرطة التسجيل .. او ؛ كما يدل منطق التطور العلمي ، يأخذون الدروس من الصيدليات ، حيث يجد الطالب مختلف القوارير ، المحتوية على خلاصة العلوم !!! او بواسطة الحبوب المكثفة .. كالفيتامينات ، سواء بسواء !!

والى ان تحين هذه الساعة المباركة ، فاننا نضع اقتراحاتنا المتواضعة (بكل فخر) امام المسؤولين . ولنا كبير الامل ان يبحثوا فوراً ، لتطبيق مايلائمهم من هذه الاقتراحات .

وبانتظار الغرض المقبل ، تفضلوا بقبول اسمى مظاهر الاحترام والتقدير .

« الكاتب »

عصويص بن عكرمة العضروطي

ع - ع - ع ٠ ع٣ ٠ ع٣

درعا — محمد حيدر

من « جمعية الادباء العرب »

ادب التحرر - بقية -

مصر فيقول :

غضبت لسوريا الشهيدة أمـة
في مصـر تطفىء غلة الامصار
ورعت لها ذمم الوفاء فلم يضع
عهـد تسلسل في دم الاعصـار
لله والتاريخ والدم واللغـى
حق ، وللآمـال والاوطار

★ ★ ★

وهذا هو الشاعر القروي رشيد سليم الخوري يرحل بعيداً عن بلده لبنان ، الى المهجر ويبقى هناك يحن الى الوطن وينفخ في أبنائه روح العروبة ، لم ينس لبنان يوماً ، لبنان العربي الذي عشقه وبقي يذكره في سرائه وضرائه في كثير من الابيات التي نسمع خلالها رنة الالم الدفين وشوق المحب الذي لاينسى كقوله :

لهفي على بيروت تصبح مسرحاً
لمغارم الغازي وعهـر بناته
فردوس أملاك يضـم أبالساً
وتـعذب الابرار في جناته
قـالوا أتعشقه وهذي حـاله
ياحبذا وطـني على حالاته !
العيش حـلو في سبيل رقيه
والموت أحلى في سبيل حياته !

هذا الادب الذي ملأ الدواوين منذ فجر النهضة ، والذي فاضت به قلوب الشعراء والكتاب هو الذي أيقظ العز الذي غفا وشحذ الهمة التي خمدت وبعث العزيمة العربية التي كمنت في النفوس كمون النار في الحطب .

فلنكرم أولئك الشعراء والادباء الذين لم يستطع الاذى ولا الظلم ان يكم أفواههم بل ظلوا ينشدون أناشيد الحرية في معركة العروبة الظافرة .

جودة الركابي

طبعت في

مطبعة الجمهورية

دمشق — بوابة الصالحية — بناية الحجار

هاتف - ٢٣٥٥٦

المسرحية عند عمر النص

بقلم :
سعد صائب

عاطفة ، تصوير ، تجربة ، موسيقى [١] !

تلك هي اللوحة المشرقة التي رسمها لنـا الشاعر عمر النص بريشته في مسرحيته اليتيمة « نشيد الانشاد » التي ختم بهـــا ديوانه الانيق « الليل في الدروب » وان الناقد المنصف ليجد نفسه في موقف الدهش والحيرة امام أروع المعاني ، وابرع الصور ، وخيال اسمى تجربة عاطفية سجلها الشاعر في تعبير فني بموسيقى يزخر بالجرس والرنين ، ويعج بالحياة والحركة ، تترادف جميعها وتتالى لتترك في ذواتنا ظلالاً رهوة حلوة تفعل فعلهـا فينا ، وكأنها ضرب من التأثير السحري ، حـــاول الشاعر جاهداً بماله من قدرة فائقة ، ان يبدع ــ الى حد ما ــ لوناً من المسرحية جديداً في ادبنا المعاصر ، بناء على فهم سليم لاغراضها وانشأه على دراسة عميقة لمقوماتها ، ولست مغالياً اذا قلت انه بمحاولته هذه كاد ان يكتشف الينبوع الثر في لغة المسرح ودقته واتقانه ونقائه ، دونما ضجيج وصخب ، او قسوة وطغيان على تلك الاغراض والمقومات التي نراها ماثلة بوضوح لدى اغلب الشعراء الذين الفوا للمســرح مستلهمين التاريخ والواقع ، اذ جاءت مسرحياتهم مغايرة اشد التغاير لطبيعة المسرح ، مخالفـة لروحه ، متباعــــدة عن دقته وفنيته !

ونخال ان ثقافة الشاعر « عمر النص » الموسيقية ، واطلاعه الواسع على الثقافة الكلاسيكية العالمية ، قـد اثرا على تصميمه مسرحيته ، فأعطياها هذا الطابـع الغريب نوعاً ما في كتابـة المسرحيات .

وهذه المسرحية تعالج مشكلة الانسان الفنان امام المرأة التي يجهل هذا الانسان ماضيها الذي لم يمتزج بماضيه ، وهي نوع من الدراما اراد بها الشاعر تصوير الحالات النفسية التي تعاورت شخصيتين تاريخيتين همـا « سليمان الحكيم » و « بلقيس ملكة سبأ » اثر لقائها . ولعل النظرية الاخلاقية التي داخلت هـذه المسرحية هي هـذا القلق النفسي المتزايد الذي طغى عـــلى « بلقيس » اذ تفاجــأ باعراض « سليمان » عنها ، وهي التي حملت اليه عواطفها ، واملت ان يبادلها عاطفة بعاطفة ، لذلك نراها تحاول كشف سر التغيير الذي طرأ على الاحاسيس التي داخلت « سليمان » ، ولكنها تحار اشد الحيرة من هـذا القلق الذي اتضحت ملامحه في موقفه السلبي حيالها ، وهنـــا يصل الشاعر ــ من خلال احداث المسرحية - الى حل لهذه النظرية الاخلاقية ، وهي تصويره الحالات النفسية التي اعتورت « سليمان » و « بلقيس » ، واظهاره فشلهما في الحب حـين التقيا وواجه كل منهما الآخر .

وفي وسعنا تقسيم المسرحية الى ثلاثة أقسام ، يحـــاول الشاعر في القسم الاول تصوير عاطفته امام هذه المغامرة المجهولة التي يقدم عليها والتي يشعر فيها بمقدم حلم ، وموعد مع الاعياد ، كما يبدو في هذا القسم الـــترقب والاستبشار والتطلع الى لقاء غني شجي ، وهذا المقطع مكتوب بشكل غنائي ويــــكاد يكون افتتاحية في اوبرا غنائية ، يعقبه مباشرة الحوار والحادثة ثم تنسرب المسرحيــة في النهاية كما أتت معيدة ذلك النغم الاول بعد ان ينقلب الى شيء من الصدى الحزين .

يستهل الشاعر افتتاحيته في تصوير لقاء الحبيبين ، والشوق الملح الذي ساور الشاعر والح عليه في هذا اللقاء حيث يقول :

اتومىء لي عيناك ام انا احلم
شبابك يدعوني وطرفك يلهم
وكفك هذي تطمئن الى يدي
فتزهر جنات وتخفق انجم
فرشت باهدابي الطريق فأقبلي
دروبك اعياد ويومك موسم
بعينيك آباد تكاد نجومها
تخوض الي الليل والليل مظلم
يهم بهـا طرفي فتسأله متى
فيجأر بي شوق وينكرني دم
كأني وقد غرّقت فيك نواظري
أحس بحلم في العيون يغمغم
ففي كل جفن قصة استعيدها
وفي كل هدب موعد يتكلم ..
اكاد الم الذكريات على دمي
وامسك انفاسي اذا شهق الفم

الى ان يقول :

لقيتك في دربي فأورق ذابل
واشرق محزون وضوأ مظلم

(١) فصل من كتاب « شاعر معاصر » الذي سيظهر قريباً مع نماذج شعرية مختارة .

واطرقت لا ادري وقد ضاع عالمي

اتومىء لي عيناك ام انا احلم !

ثم يأتي القسم الثاني ، وهو قسم الحوار في المسرحية ، ويبدأ بمشهد بين « بلقيس » ووصيفتها ، ويبدو من الحوار ان هذا المشهد يقع بعد مضي زمن على لقاء « سليمان » و « بلقيس » وفيه نرى بلقيس تضيق بالملال الذي يظهر على سليمان ، كما نلمس تلك الخيبة التي تحسها « بلقيس » في سلوكه نحوها ، وفي نظرته الى ماحوله ، فتحاول وصيفتها ان تسري عنها ، ولكن بلقيس الذكية الرهيفة الاحساس تـــدرك ان سليمان يفتش عن شيء ليست تملكه . فلنستمع الى هذا السؤال الملح تطرحه الوصيفة على سيدتها وهي ذاهلة حيرى :

ترى ماوراءك ? اني أحس

بعينيك تيهان القضا ..

أحس بعاصفة في العروق

ينوءبهـــا طرفك المفتدى

فتجيبها « بلقيس » على سؤالها مستغربة جهلها بهذا الضيق الذي يلح عليها وكأنها لم تر سليمان وقد اخفى ملاله ، وانكر موعده بلقائها ، وهي التي اقبلت عليه في لهفة وتوق شديدين مازالت تكابد جواهما ، وتحاول اطفاء اللهب الذي تضرم في احشائها ، فتراها تسوّغ هذا الضيق الذي يبدو مرتسماً على محياها

صفية لاتنكري ان أضيق

فقد اشفق القلب مما رأى

اهذا سليمان ! يخفي الملال

وينكر موعدنا ان دنا

كأن على عينه نظرة

تحاول ان تبلغ المنتهى .

ولكن الوصيفة لاتقتنـــع بما ابدت بلقيس من تعلات ، فتعاود سؤالها عما يخيفها من موقف سليمان حيالها وان الكائنات كلها تفيض ببشائر الرضى والرغبة بهذا اللقاء :

وماذا تخافين ? والكائنات

تفيض بشائرها بالرضا

يتيه بك الملك والعنفوان

ويزهى الجلال وتزهو الدنى

فتجيبها « بلقيس » موضحة لها اسباب هذا الخوف الذي طغى عليها . خوفها من انطفاء النجوم اذا ماغض ناظره بالهوى وهو الذي كانت ذكرياتها تضيء به ، ويطفو نعيمها وتندى رؤاها ، خوفها من هذه الهوة التي تغتلي بشكوكها ، وتنطق ظلمتها بعجزها عن رد هذه الجفوة التي تعاني مرارتها كلما تطلعت الى عينيه وابصرت شرود احداقه :

اخاف .. اخاف انطفاء النجوم

اذا غض ناظره بالهوى

وكانت تضيء به الذكريات

ويطفو النعيم وتندى الرؤى

وكم مرة راودته العيون

فأنغض جبهته وانطوى ..

عبر فتفرق منه الظنون

وتحذر جفوته ان رنا

وتشرد احداقه بغتة

فأبصر فيهن مالا يرى

ارى هوة تغتلي بالشكوك

وتنطق ظلمتها بالونى

ونرى المشهد الثاني وقد جمع بين سليمان ووزيره «آصف» ، بدا فيه « سليمان » محير الفكر موزع النفس ، يشعر بقرب المأساة التي ستقع ، كما يشعر بهذا البون الكبير بين حلمه الذي كان يحمله بين جوانحه ، والحقيقة التي تشده الى الارض ، وهاهو ذا يسأل وزيره عن اسباب البقاء اذا كان يجهل لغزه ، وعما يدفعنا الى ان نهيم وراء ظنوننا ، وعن هذا الاحساس الذي نحسه حيال الوجود ، واخيراً عن مغزى رؤيتنا هذا الوجود الذي يضطرب حولنا ، مادمنا حيارى تعذبنا حيرتنا ، ومادمنا نشكو الصدى والماء من حولنا قريب ، ومادمنا نجر مخاوفنا في الظلام ونخشى عليها اقبال الضحى ليمحوها بالرغم من معرفتنا لها ، ونكراننا وحشتها ، ولكننا نأبى الا ان نحيا في الظلام ، ونأبى الا اننا نعيش المخاوف كأنها البلسم التي تشفي الجراح التي حملناها خلال الدروب التي مشيناها ، ولعل مرد ذلك كله الى ان اشواقنا قد غلبتنا على امرنا وابت الا السمو والتحليق صوب النجوم ، تاركة اجسادنا ملتصقة بالارض تفتش فيها عن لذاتها .. فعلام البقاء اذن ? وفيم الهيام وراء الظنون ? افي سبيل الحب ولكم ضاعت فيه امنياتنا وبددناها في رؤاه واوهامه ، وعلام ترانا نتزف ادمعنا ونعد الوعود من اجل امرأة كفرت بحبها ونقضت عهدها ?

سليمان : سألتك آصف فيم البقاء

اذا كنت تجهل لغز البقا ?

لماذا نهيم وراء الظنون
لماذا نحس ؟ لماذا نرى ..
يعذبنا اننـــا تائهون
نؤم السراب ونشكو الصدى
نجر مخاوفنـــا في الظلام
ونخشى عليها انقضاض الضحى
حملنا الجراح خلال الدروب
وسرنا نلم خيوط المـــنى
تحملق اشواقنـــا بالنجوم
وتلصق اجسادنـــا بالثرى
الحب ؟ ياضيعة الأمنيات
نبددهـــا في اقتناص الرؤى
اننزف ادمعنا .. والعهود
لكافرة ..

هنا يفجأ « آصف » بالنبأ فيعجب لهذا التغير الذي طرأ على سيده ، فيبادره توا بالسؤال عما حمله على هذه الجفوة المباغتة ، وعما الجأه الى ان يكفر بلقاء بلقيس ، وهو الذي حمل لها بين جوانحه ماحمل من غرام مشبوب ، ومن حرقـــة وظمأ الى لقائها ، فيثور سليمان متهماً بلقيس بالفراغ سواء في عينيها او في قلبها او في وجودها كله ، ولكنه مع ذلك يحس ان قلبه ماانفك مرتبطاً بها بالرغم من كل مايراه فيها وما يلمسه منها ، وبالرغم من هذا الموقف الذي وقفته كأن لها ثأراً تريد تحقيقه وكان حريا بآصف ان يبدي دهشه وان يطرح سؤاله على قلب سليمان المخدوع لاعلى سليمان المتعب الذي تنوء الطريق به ان مشى ، وليته سأل هذا القلب كيف اطمأن فوشى الدروب وزان الربى ؟ وليته سأله كيف اغرى سليمان بحمل بلقيس في عروقه، وراح يسمع نقلتها في حشاه :

سل القلب آصف كيف اطمأن
فوشى الدروب وزان الربى
لقد عشت احملها في العروق
واسمع نقلتهـــا في الحشى
وهأنـــذا متعب .. متعب
تنوء الطريق بـــه ان مشى
أراها .. فأنكر هذا الفراغ
بعينين تدعيان الهوى
وأنظر في وجهها .. في العيون
فتنكر احداقهـــا ماأرى
واخنق فوق فمي نزوة ..
فيصرخ بي فمهـــا المشتهى
الم ترهـــا ترقب النيرات
كأن لهـــا ترة في السما .. ؟

وحين يلتقي سليمان ببلقيس في المشهد الثالث تحاول بلقيس جاهدة ان ترغم سليمان على الاعتراف بهذا الاخفاق الذي مني به ، وان تجعله يبوح بخيبته التي احسها تجاهها ، وبأن اللقـــاء الذي كان يحلم به كان لقاء فاشلا ، وهنا يعترف سليمان بأنها كانت عنده اكبر من كل شيء ، وانعم من كل شيء ، واغلى من كل شيء، ولكنه يأبى ان يستهين بهواه الذي كان في قلبه، وهو هنا متردد يحس انه مايزال يحب هذه الانسانة ، ولكنه لا يستطيع ان يقبلها في وجوده :

بلقيس : سليمان مابك ؟ ان الشكوك
ترنق في ناظريّ الفضا
شفاهك تشرق بالذكريات
وتعثر بالحلم المجتبى
وعينك متعبة تطمئن
اذا اطبقت وحدها في الدجى
وتؤثر ان نلتقي في الظلام
كأنك تخشى شعاع الضحى ..
سليمان : احبك بلقيس
بلقيس : قل ما تشاء
فطرفك يشفق مما روى
هنا في عيونك ..
سليمان : ماذا ترين ؟
بلقيس : ارى الشك يحدجني .. والاسى
أخنت خيالك ؟
سليمان : ماذا أقول ..
لقد كنت غيرك ..

وهكذا ظلا في تجاذب ملح ، وعتاب مرير حول البواعث التي بعثرت دنيا حبهما فأدمتها ، وحفرت فيها هوة تاهت روحاهما في ظلمتها ، وانكأت جراحهما ودفعت بكليهما الى الارتياب والشك ، ولكن ثمة ظمأ محرقاً يكوي قلب بلقيس بالذات فيشرق فمها بسؤال يمزق حجب هذا الشك ، فتصيح مستغربة

ملتاعة ايكره ماضيها ؟ فنحس من جوابه ان الانسان فيه قد ثار ، وان الرجل الذي كان يختبىء وراء العاشق والشاعر والمفكر والفنان قد ظهر ، فهو يغار من الذكريات ، ويكره كل يد غاصت اناملها في شذاها ، ويعذّب ذاته بتخيل بلقيس ملقاة على وساد ضاج وقد اكب على فمها العنبري انسان آخر ، فلنستمع الى هذا الحوار الذي طاش فيه الهوى وترنحت كأسه وجفّت خمره ،ولنرقب هذين الحبيبين وقد اجترأ الدهر عليهما، وغالت يده حبهما فانكر كل منهما على اليفه موقفه المفاجىء :

بلقيس : اتكره ماضي ؟
سليمان : لا تذكريه

فاني اخاف انقضاض السما
هو السم تشقى به المقلتان
وتكوى العروق وتعيا الرقى
اغار اغار من الذكريات
وانكر وسواسها في الكرى
واكره كل يد هدهدتك
وغاصت أناملها في الشذى ..
الم ترسلي في المساء البليل
جدائل يعبدها من رأى
والقيت رأسك فوق الوساد
فضج الوساد وجن الدجى
وضاق بحرقته ظامىء
فهمّ بعينيك حتى ارتوى
اكب على فمك العنبري
فروّى الغليل وبل الصدى

وتثور بلقيس ثم تحاول ان تطمئن سليمان ، وان تعود به الى الساعة التي يعيشان فيها ، ولكنها تحس بأنها تحاول عبثاً ويحس هو عند ذلك بان طريقيهما قد اختلفا الى غير رجعة ، وحين تنذره بالبين نراه يلقي برجائه الاخير ان تبقى وان لم يقتنع بهذا الرجاء ، ولكنها تعود الى عزتها الملكية فتعلن انها مسافرة :

بلقيس : انا .. ام خيالك ضل الغداة
فراع النجوم وداس السنا
سليمان ! قل لي متى نستريح
فنسلو الدموع ونطوي الاسى؟

سليمان : اقول؟ وماذايقول الربيع
اذا روعته رياح الشتا
طريقك يوغل خلف القفار
ودربي يرود بي المنتهى !
بلقيس : صدقت سليمان ..
سليمان : هل تغفرين ..؟
بلقيس : أأملك بعدك غير الرضا ..
انا في الذهول الم الوعود
واحضن كل خيال سرى
اغض الجفون على دمعتين
واشمخ هازئة بالبكا ..
وقصرك هذا الذي تدعيه
وتقنص منـــه ذيول السما
سأتركه في غد .. في الصباح
سليمان : فديتك لاتؤذني بالنوى
برغمي انك في ناظري
بقية حلم ورؤيا هوى ..
اتبقين بلقيس ..
بلقيس : رد العزاء
فلست ابالي افول الرجا
سليمان : انا تائـــه اتعبته الظنون
وضاق الطريق به والتوى
اردتك فوق المنى والخيال
فألقيت بي في السفوح الدنى
وغم علي الفضاء العريض
فماذا اقول ..
بلقيس : الى الملتقى ..!

وهنا يأتي القسم الثالث من المسرحية ، وهو رد عاطفي وفني على الاستهلال الذي اجراه الشاعر في بداية مسرحيته حتى انه احتفظ بنفس البحر ونفس القافية كي يصور هذه الردة التي تمثل انقلاب الحلم الزاهر الى مأساة واقعية . واننا نجد سليمان وقد انصرف في طريقه بعـــد ان سافرت بلقيس يعيش مع ذكرياته ويئد اشواقه ويمضي الى غير غاية وهو يحلم بهذا الافق البعيد البعيد يضيق بعالمه ويغرق في مبهمه .

تركتك في دربي فاخفق موعد
واجهش اشراق واقفر معلم

واطرقت لا ادري وقد ضاق عالمي
أأنت وراء الافق ام انا أحلم !

وبعد . لقد حاول الشاعر « عمر النص » في هذه المسرحية ان يحل نوعين من المشاكل .

١ً ـ المشاكل التكنيكية لكتابة المسرحيه الشعرية

٢ً ـ المشاكل الفنية التي تتعلق بشكل الحوار المسرحي

ففي المشاكل التكنيكية جرى شوقي وعزيز اباظه وجميع الذين كتبوا مسرحيات شعرية على المزج بين البحور والقوافي في نفس الفصل ، وفي نفس المشاهد ايضا حتى ان القارىء يضطر مرغما الى الانتقال بين بحر وبحر وقافية وقافية في كل بيتين او ثلاثة او عشرة ، وقد ادرك « عمر النص » في هذه المسرحية ان هذا الشكل من الكتابة يذهب بالطابع المسرحي للشعر اذ انه يضيف الى الحوار تقلبات فنية تبعد به عن الواقع ، كما ان استعمال القوافي يجعل القارىء او السامع يقف عند آخر البيت امام روي فخم فينسى ان الحوار لم يتم بعد ولذلك يفقد الحوار واقعيته المسرحية . ولقـــد حاول « عمر النص » في مسرحيته « نشيد الانشاد » ان يقصر الحوار على بحر واحد وهو « المتقارب » فكتب جميـــع حوار المسرحية فيه ، ثم حاول ان يحل مشكلة القافية فهرب من القوافي الضاجة الرنانة ليكتفي بقافية خفية تكاد لاتحس وهي « الياء المقصورة » التي لا تقف اواخرها امام تدفق الحوار واستمرار الجمل الشعرية .

اما مشاكل الحوار الفنية فتتعلق بثلاثة شروط يجب ان تتوفر في الحوار الشعري وهي :

١ً ـ **واقعية الحوار البسيكولوجية** ومعنى هذا ، ان هذه الكلمة او تلك يمكن ان تقال في هذا المشهد او لا يمكن ، وقد كان اكثر الشعراء الذين يعالجون المسرحيات الشعرية يسهون عن دراسة بسيكولوجية الموقف فيتركون لابطال رواياتهم ان يتكلموا بشكل لا يمكن ان يحدث في الواقـــع المعاش في نفس تلك الظروف النفسية .

٢ ـ **واقعية الحوار المسرحية** : ذلك ان بعض الكلام او بعض الاحداث يمكن ان تقع على خشبة المسرح او لا تقع ولذا يجب دراسة كل كلمة تقال في الحوار من حيث صلاحيتها لو مثلت على خشبة المسرح . ونعتقد ان دراسة شاعرنا للفن المسرحي وثقافته المسرحية وادمانه على حضور المسرحيات التي كانت تمثل في باريس ولندن اعطاه احساسا بالحاجات المسرحية لم تتح للذين عانوا هذا الفن .

٣ اما الشرط الثالث فهو هـــذا الحوار الواقعي في بسيكولوجيته ، الواقعي في شروطه المسرحية والذي يجب ان يبقى شعراً وشعراً جميلًا ايضاً ، وكان على شاعرنا ان يعنى بانتقاء الفاظه ، وان يبقي الحوار على ذلك المستوى الشعري الرفيـع الذي عودنا اياه في غنائياته .

وثمة نواح اخرى في المسرحية جديرة بالملاحظة وهي ان الشاعر اكتفى بشخصيتين تاريخيتين ركز عليهما اهتمامه وابتغى تصوير خيبة الحب من خلال موقفهما ، ولقد ظل متشدداً على الحادث الرئيسي دون ان يدخل حوادث ثانوية بجانب ذلك الحادث ، او يدخل بعض المفاجآت في سير مسرحيته ، وليس يكفي انه افسح مكاناً لشخصية « آصف » وزير سليمان ، او « صفية » وصيفة بلقيس لانهما لم يبدلا من سير المسرحية ، ولم يدخلا اي مفاجأة عليها ، وكل ما صنعاه في موقفهما انهما ظلا يتساءلان واكتفى الشاعر بهذا التساؤل دون توضيح لملامح شخصيتهما او تركيز اهتمامه على سماتهما .. كما انه الح الحاحاً متزايداً على ابراز ذاتيته بروزاً ظاهراً ولم يترك لاشخاص مسرحيته الفرصة لكي يتحدثوا بلغتهم الطبيعية ويحيوا حياتهم الخاصة ، لان من اولى واجبات الاديب او الشاعر الذي يؤلف للمسرح « ان يترك جانباً اذواقه ، وافكاره ، وحتى مالديه من عقائد لكي يستطيع ان يدخل في روح ابطاله ، وان يفترض مالديهم من افكار واحساسات تتناسب مع مكانتهم الاجتماعية . وهـذا شرط اساسي لكي يستطيع ان يخلق طرازاً حقيقياً متنوعاً ، لا يكون بمثابة الالة المملة التي تردد صوت المؤلف لان المؤلف الدراماتيكي يعتبر مظهراً من مظاهر الفن الموضوعي الخالص ، الفن الذي تكون فيه شخصية الشاعر هي الاقل ظهوراً من الشخصيات الاخرى في المسرحية » .

تلك هي المشاكل التي واجهت الشاعر « عمر النص » في مسرحيته ، ولا اخاله يظن انه استطاع ان يحل مشاكل « المسرح الشعري » حلًا نهائياً ، لانه يدرك ان كتابة مسرحية كاملة قد توقع الشاعر في مآزق اخرى لم يتعرض لها في مسرحيته القصيرة ، ومهما يكن من امر فانه اعطانا في هذه التمثيلية نموذجاً من انجح نماذج الحوار الشعري ، واملنـا كبير ان يطلع علينا بمسرحية كاملة تتجلى فيها امكانياته المسرحية وشاعريته وفهمه العميق للواقع المسرحي !

دمشق
سعد صائب
من جمعية الادباء العرب

مشهد اصطياف

لـ (ا ـ تشيكوف)

تمثيلية هزلية قصيرة

ترجمة : ذكية الصوفي

الاشخاص : تولكاتشوف ايفان ايفانوفيتش رب عائلة

الكسي موراشكين صديقه

المشهد في بطرسبورج . عند مراشكين في مكتب عمله . موراشكين جالس الى مكتبه يدخل تولكاتشوف يحمل زجاجة ضوء ، دراجة صغيرة ، ثلاث علب قبعات ، فستان مغلف ، زجاجة بيرة في كيس من الشبك ، ومجموعة من الرزم الصغيرة ، يدوّر عينين وحشيتين ، ويرتمي على الاريكة منهوكا من الاعياء

موراشكين ـ مرحباً ياايفان ايفانوفيتش ! اني سعيد برؤيتك . اية نسمة طيبة جاءت بك

تولكاتشوف ـ (وانفاسه تكادتنقطع) ياصديقي ياصديقي ، العزيز ! ارجوك ، اعرني مسدسك حتى الغد . . اطلبه منك بصفتي صديق ! اتوسل اليك !

موراشكين ـ مسدس ? وماذا تفعل به ?

تولكاتشوف ـ انا بحاجة اليه آه يا ابي ! اعطني ماء ! بسرعة ماء ! انا بحاجة اليه ! ساجتاز غابة مظلمة ليلا ، ولذا . . انظر ، اني . احتياطا . . اعرني اياه ! اعمل معي هـــذا المعروف !

موراشكين ـ ماذا تقص علي يا ايفان ايفانوفيتش ! غابة مظلمة ? دعنا من هذا ! انك لاشك مبيت امراً ، انا ارى هذا من سحنتك . ولكن ! ماذا بك ? هل انت مريض ? . . .

تولكاتشوف ـ انتظر ! دعني اتنفس ! آه يا امي ! أكاد اطق كالكلب ! احس باني قطعت كلي ! رأسي ، وجسمي ، قطعت قطعاً واهياً للشي . لم اعد اطيق هذا الحال ! لقد نفذ صبري ! انك صديقي اليس كذلك ? اذن لاتوجه الي اي سؤال ! ولا تدخل في الجزئيات ! اعرني مسدسك اتوسل اليك !

موراشكين ـ ماهذا الجبن ياايفان ايفانوفيتش ، انت رب العائلة ، والعضو في المحكمة العليا ، ألا تخجل ! ?

تولكاتشوف ـ رب عائلة ! انا لا ابـداً ! انا شهيد ! انا دابة لحمل الاثقال ! انا عبـد ! انا رجل سافل لا يزال على قيد الحياة عوضا من ان يذهب الى العالم الآخر ! انا ابله ! هـذا انا ! لماذا اعيش ? لماذا ? (ويهب واقفاً) اخـيراً ! قل لي ! لماذا اعيش ? ما فائدة سلسلة الآلام هذه التي لا تنتهي ?

ان اعذب من اجل فكرة ! هذا افهمه ! ولكن ان اعذب بسبب شراء بضائع رخيصة وثياب نساء ، وزجاجات ضوء ?! لا ! خادم ! لا ! لا ! لا ! كفى ! كفى .

موراشكين ـ لا تصرخ هكذا فالجيران يسمعوننا .

تولكاتشوف ـ ليسمع الجيران هذا لا يهمني . واذا كنت لا تريد ان تعـــيرني مسدسك فهناك من يعطيني مسدساً . سأنتهي من هذه الحياة ! لقد قررت وانتهى الامر

موراشكين ـ تريث ! لقـــد اقتلعت لي كل ازراري . تكلم بهدوء ! انني لا ارى ما الذي في حياتك هو رديء الى هذا الحد ?.

تولكاتشوف ـ ما هو رديء في حياتي ? تسألني عنـــه ? ها أنذا سأقوله لك ! سأفتح لك قلبي . ربما اشعر براحـة بعد ذلك . لنجلس ! اصغ الي .

آه يا امي ! اني اختنق ! لنأخذ مثلا نهاري هذا ! لنأخذه! أتعرف بأني منذ العاشرة صباحاً حتى الرابعة ظهراً ، يجب ان اعمل في المكتب . حر خانق . . الذباب مزعج ينكد العيش . . الخلاصة ضجيج غير محمول . . السكرتير في اجازة خرابوف ذهب ليـــتزوج . . صبي المكتب لا يفكر الا بالغراميات ومسارح الهواة . الجميع يكادون يسقطون من النعاس . لقد اعياهم التعب ، انهم مرهقون ولا يمكن ان يقوموا بأي عمل مفيد . . السكرتير بالوكالة اصم من الاذن اليسرى وعاشق . اصحاب المعاملات هؤلاء البـلداء . . هم غالباً مستعجلون . . وينقصهم دائماً الوقت . . يغضبون ويهددون . . الخلاصة . . فوضى في فوضى . . تحملك على ان تطلب المدد والمعونـة زد على ذلك عملا مملا . . هو هو لا يتغير ، ولا يتبدل ! مصدقة !

كتاب .. مصدقة، كتاب .. انه على وتيرة واحدة كموج البحر !
لا شيء سوى ان عيني تخرج من مآقيها . هل تتصور كل ذلك؟
آه ! اعطني ايضاً اشرب ! اغادر مكتبي مكسراً، مطحوناً !
انه وقت الغذاء والقيلولة . لكن لا ! لا تنسى انك مصطاف.
يعني انك عبد انك كديش، وكابن حرام ملعون عليك ان
تلبي بسرعة كل ما يطلب منك ! عندنا نحن المصطافين عادة
ساحرة ! مدهشة !.. ما ان يدري المصطافون بان احدهم
ينوي النزول الى المدينة حتى يصبح من حقهم ان يرهقوه
بمطاليبهم . هذا بصرف النظر عن مطاليب زوجته . فزوجتي
امرتني بأن أذهب لعند الخياطة لأن خصر فستانها عريض
واكتافه ضيقة، يجب ان ابدل احذية سونيتشكا . وان
اشتري لاخت زوجتي بعشرين كوبك حريراً حسب المسطرة
التي اعطتني اياها . وثلاث بكرات خيطان . دقيقة واحدة
سأقرأ لك اللائحة (واخرج من جيبه قصاصة ورق) وقرأ :
بلورة للضوء، نصف كيلو مرتاديلا، بخمسين كوبك قرنفل
وقرفة، زيت خروع لميشا، خمس كيلو غرامات سكر، ان
احضر من البيت دست النحاس، وهاون السكر، فينول،
بودرة لابادة الحشرات، بعشرة كوبك بودرة، عشرين
زجاجة بيرة، خل ومشد قياس ٨٢ للآنسة شانسو اف ! وان
احضر من البيت المعطف الخريفي والكاوتشوك لميشا . هذه
هي متطلبات زوجتي للعائلة ! والآن هذه توصيات
الاصدقاء والجيران :

غداً عيد فولوديا ابن آل فلاسين، يجب ان اشتري له
دراجة بثلاثة دواليب، زوجة المقدم فخرين حامل . علي ان
اذهب لعند القابلة لأطلب اليها ان تزورها معي خمس لوائح
في جيبي وعقد في زوايا محرمتي الاربع . ولذا تراني من ساعة
خروجي من المكتب حتى ساعة سفر القطار اركض في المدينة
كالكلب، لساني متدلي، اركض اركض، وأنا اشتم الحياة..
من المخزن الى الصيدلية، من الصيدلية لعند الخياطة من عند
الخياطة لعند اللحام، ومن جديد للصيدلية . في هذا المكان
تتعثر وفي ذاك تفقد نقودك، وفي الاخير تنسى ان تدفع
فيركضون وراءك يصرخون، وهناك تمشي على ذيل ثوب
سيدة .. أف بعد تمرين مماثل، تثور، وتتعب، وكل الليل
تؤلمك عظامك، وتحلم في التماسيح . طيب ! كل المشتريات
والخدمات انتهت والآن يجب ان تحزم كل هذه الاشياء !
كيف تريد ان أحزم مثلاً هاون نحاس ومدقته مع زجاجة
ضوء أو فينول مع الشاي ؟ كيف تريد ان اجمع بين
زجاجات البيرة والدراجة ؟ هذه يا أخي اعمال مصرية !
اهرامات ! عمل مجهد، حل أحاجي، ومهما فكرت وحذرت
لا بد من كسر شيء وقلب اشياء ! .. في المحطة، وفي القطار
أبقى واقفاً، مختفياً تحت اكوام من العلب والرزم . عندما
يتحرك القطار يبعثر المسافرون امتعتي التي وضعتها على مقاعدهم
المحجوزة .. يصرخون، ينادون السائق، يهددون بانزالي ..
ولكن ماذا أستطيع أن أعمل ؟ أظل هنا أحمق كحمار قتله
صاحبه .. والآن طول بالك! اسمع النهاية . أصل البيت ! لقد
حان ان ارتاح بعد هذه الاعمال المضنية، واتعشى وأنام ..
أليس كذلك ؟! ولكن لا ابداً ! فان امرأتي تنتظرني منذ
حين .. وما ان ابلع اللقمة حتى تلقي القبض على العبد المسكين
داعيك .. على اصطحبها بلطف الى المسرح او المرقص .
لا فائدة من الاعتراض ؟!.. انت الزوج وكلمة زوج بلغة
المصطافين تعني دابة خرساء تركب وتحمل فوق ما تستطيع
دون ان يخشى تدخل جمعية الرفق بالحيوان . اذهب ادن
المسرح واحملق بعيني عندما اشهد « فضيحة في عائلة محترمة »
أو « مونتيا » اصفق عندما تأمرني زوجتي بالصفيق، وافنى،
واهلك، واموت، وانا انتظر في كل دقيقة ان احمل على
اكتاف رفاقي اما في المرقص، اعجب بحركات الراقصين
وان افتش لزوجتي عن مراقصين .. فاذا ما نقص واحد ..،
على ان اتمم الرباعية، اعود بعد منتصف الليل، اشبه بجثة بالية
مني برجل، واخيراً هأنذا ابلغ ما كنت احن اليه .. واخلع
ملابسي واستلقي في السرير .. عال ! عال ! لم يبق لي الا ان
اغمض عيني وانام، جو الغرفة جيد، وكل شيء شاعري،
لذيذ، فالاولاد كفوا عن الصراخ في الغرفة المجاورة، زوجتي
غير موجودة، وبالي مرتاح .. ماذا اطلب اكثر من هذا ؟!
أنام وفجأة، وفجأة .. وزوز البعوض ! (وهب واقفاً)
البعوض ! .. لعنة الله عليه ! البعوض ! .. (وهز بقبضتيه)
البعوض ! وزوز .. يعزف بانين ! كأنه يطلب السماح ولكنه
عندما يخز ... هذا المجرم ... يدعك تحك ساعة .. وادخن
وأقتل البعوض .. واسحب الغطاء حتى رأسي .. بدون
فائدة ! .. واخيراً اتعب من القتال واسلم نفسي ليلتهمني .
خذ ! كلني ! لعنة الله عليك ! وما ان اعتاد قليلاً على البعوض
حتى يفتح جرح جديد .. في الصالون زوجتي تغني مواليات
والاصدقاء يرددون . انهم ينامون نهاراً، ويقيمون حفلات
غنائية ليلاً ! آه يا الهي هذه الالحان المختلفة هي من انجع طرق
التعذيب . فالبعوض ليس شيئاً بالنسبة اليها (ويغني مقلداً)

« لا تقل لي بأنك كرست صباك » او « رايتك ووقعت من جديد تحت تأثير سحرك ، آه يا للمناحيس ! انهم يعذبونني وينكاون بي .. انظر مااخترعت لاضعف من صوتهم ، اضغط باصبعي على صدغي فوق اذني ، واضغط واضغط وهكذا حتى الساعة الرابعة صباحاً عندما ينصرفون ، اف ! اعطني قليلاً من الماء يا اخي ! لم اعد اطيق ! .. وهكذا ، دون ان اغمض عيني ، انهض في الساعة السادسة ،.. واتجه نحو المحطة .. واركض ، اذ اخشى ان يفوتني القطار. في الخارج الوحل !.. الضباب .. البرد ..! اصل الى المدينة .. الموسيقى من جديد .. وهكذا يا اخي هل تريد ان اقول لك بانني احيا حياة كلب ، لا اتمناها حتى لعدوي ! تعرف .. انها اسقمتني .. فأصبت بالربو .. اني اخاف دائماً حدوث شيء ما .. فمعدتي لا تهضم جيداً ، وعيناي مغبشة .. وفقدت اتزاني .. صدقني (متلفتاً الى جميع الجهات) (كلام بسرك الياس كذالك) ؟!

سأذهب لعند تشيتشوت او مرجيفسكي للمعاينة ، لا ادري مابي يا أخي ! ففي بعض الاحيان اشعر من شدة الغيظ والاعياء عندما يلتهمني البعوض ، او عندما ينشد المغنون الموالي أشعر فجأة بأنني لم اعد ارى بوضوح ، فأقفز واركض في البيت كالمجنون ، وانا اصرخ : اريد دماً ، اريد دماً !

وفي الحقيقة اود لو اطعن احداً بسكين في ذاك الحين ، او ان اضربه بكرسي على رأسه أنظر ماذا فعل الاصطياف بي انظر الى اين وصلت ، ولا احد يشفق علي ، ولا احد يرثي لحالي وكأن مايحدث طبيعي ، حتى ان هناك مايسخر مني ! ولكن هل تفهمني ! اني حيوان واريد ان اعيش ! انها ليست اغنية الموسم ! لا ! بل هي مأساة ! اسمح لي اذا كنت لاتريد ان تعيرني مسدسك ، ترفق لحالي على الاقل .

موراشكين — اني اشفق عليك !

تولكاتشوف — تشفق علي؟ نعم اني ارى هذا ... وداعاً لاسرع كي اشتري سمكا ، ونقانق ومعجون اسنان ، قبل ذهابي الى المحطة .

موراشكين — اين تسكن في الريف ؟

تولكاتشوف — كيف لا أعرفها ؟ اننا لانتزاور حتى .

موراشكين — ياللغرابة ! انها لمصادفة طيبة ! كم تكون لطيفاً فيا لو !

تولكاتشوف — خير ان شاء الله .

موراشكين — ياصديقي العزيز ، هل تستطيع ان تقوم لي بخدمة صغيرة اطلبها منك كصديق .. احلف لي بأنك ستقوم بها .

تولكاتشوف — خير ان شاء الله .

موراشكين — قم لي بهذه الخدمة اتوسل اليك ياصديقي العزيز .

أولاً : تحياتي لأولجا بافلوفنا . قبل يدها ، وقل لها ان صحتي جيدة .

ثانياً : اعطها هذه الرزمة الصغيرة ، لقد كلفتني ان اشتري لها ماكنة خياطة يدوية ، ولا يوجد عندي احد يأخذها لها اعطها اياها ياعزيزي . وبالمناسبة نفسها ! اعطها هذا القفص وهذا الكناري . ولكن انتبه لاتكسر باب القفص ، مالك تنظر الي هكذا ؟

تولكاتشوف — ماكنة خياطة ؟ ! كناري في قفصه ! وبلابل ! وبراقش .

موراشكين — ماذا دهاك يا ايفان ايفانوفيتش؟ وجهك كالدم ؟ !

تولكاتشوف — (يخبط برجليه) اعطني ماكنة الخياطة اين القفص ؟ اركب على ظهري كلني ! مزقني ! موتني ! (مغلقاً بقبضتيه) اريد دماً ... اريد دماً .

موراشكين — انت مجنون ؟!

تولكاتشوف — (متجهاً نحوه) اريد دما ... اريد دما ...

موراشكين — (خائفا) انه مجنون (يصيح) بيتروشكا ! ماريا ، اين انتما ، النجدة ! النجدة !

تولكاتشوف — (راكضا وراء) اريد دما ... اريد دما !..

اللاذقية — ذكية الصوفي

حافظ ابراهيم

بقلم :

نسيب الاختيار

على ظهر مركب من مراكب النيل في ديروط ، حيث الحياة تنساب في جو حالم ، ولد شاعر ، لم ينعم بظل الابوة اكثر من اربع سنوات ، فانطلقت به امه الى القاهرة ، وليس لديها من متاع المدخر غير هذا الطفل الصغير ، الذي خلفه ابوه ولم ينبت ريشه بعد .

طوت ام حافظ ابراهيم الدرب الى القاهرة ، وليس لها من امل في هذه الحياة الدنيا ، غير اخ موظف بنى بيته قشة قشة ، فآوت الى خاله لتحيا في كنفه مع ولدها ، فينشأ هذا الولد في بيت يشرف عليه رجل ، فلا ينصرف الولد الا ما قبل لها في صده ولا حيلة لها في دفعه . ولكن حافظ الذي نشأ في بيت خاله لم يزده شعوره باليتم الا ثورة على ثورة . فقد ثار على عالمه الصغير في دنيا بيته ، وتمرد على عالمه الكبير في دنيا الكتاب الذي الحقه به خاله ، فانطلق هاربا هائماً كأنما الحياة اطلقت سراحه ، ليعيش كما يشتهي وكما يحب ، وعز على خاله هذا الجنوح ، فأخذ بيده الى مدرسة من تلك المدارس التي خيل اليه انها كفيلة بخفض جناح الولد الضال ، ولكن الولد الضال لم يطق بمدرسته الثانية ولا الثالثة صبراً ، كان يهوم في الدنيا ، ولا عاصم له ولا كابح .

ومن جديد حملت ام حافظ نفسها الى بلد آخر الى طنطا في ظل اخيها الذي انتقل اليها ، وكانت حياة حافظ في تلك الفترة من الزمن تتفتح وتنمو ، فلم يذهب حافظ الى المدرسة ، ولم يخلد الى البيت ، بل راح يحيا مع الناس ، يحيا في وسطهم الشعبي ، فالتقى وإياهم في غمرات البؤس وجد حياتهم في حياته ، ودنياهم في دنياه ، وانه واياهم سواء بسواء ، فالضباب الاسود يلفه وامسهم ويومهم وغدهم ، مثل امسه ويومه وغده ، شطحة من شطحات مجهول ، فأقبل عليهم ، يستمع الى حكاياتهم واساطيرهم ، حيث يجد كل واحد منهم في هذه الاساطير والحكايات ، رفيف حلم سرا بي ينس في رؤاه واقعه الاليم ، حتى اذا ما افاق من غفوة الحلم ، والفى نفسه امام واقعة ، وشح الواقع بالنكتة ، ليعبر بالرمز من مغزى اشياء تضطرب في صدره ، ولا يطيق الجهر بها ولا التطلع اليها .

وراق لحافظ ابراهيم هذا الطراز من الحياة ، فاكب القصص والسير والشعر ، يتلو هذا جميعاً ، كما راق لحافظ ابراهيم ذلك التعبير الرمزي الذي تضمنته النكتة ، فتلقفه بلهفة .

ولكن هذه الحياة التي زودته بتجارب كان لها اثرها العميق في شعره ، ما كان لها ان تستمر ابداً وهو في ظل بيت خاله ، فقد شب حافظ واصبح رجلا ، وما ينبغي لمثله ان يأكل على سفرة غيره ، فالتحق بمكتب احد المحامين ، وعمل فيه ، ولكنه سرعان ما هجره الى مكتب ثان وثالث .

ما ذا عساه يصنع ؟ أيعود الى بيت خاله ؟ كانت الخطوة التي خطاها في حياته الجديدة ، من السعة بحيث يصبح من العسير على مثله النكول والنكوص ، فشخص بأبصاره الى القاهرة ، ويمم شطره اليها ، لا ليحيا في بحر خضم من الفوضى ، بل ليشن معركة على هذه الفوضى ، ويدفنها في مدرسة حربية لها من قيودها ما يحرره من نزواته المتمردة ، ويضمن لها حياة متسقة منتظمة ، وقضى حافظ ابراهيم في المدرسة الحربية ما يقضيه فيها امثاله وخرج منها برتبة ملازم .

غير ان الشيء الذي لم يستطع حافظ ابراهيم التخلص منه ، بالرغم من صلابة الانظمة العسكرية ، هو كسله الفني ، هذا الكسل الذي افضى به الى الاستيداع . ومن ثم الى السودان في حملة (كتشنــن) ، وكان على حافظ ان يتعظ بما حدث له في الماضي ليدفع عن نفسه رقة الحال ، ولكن حافظ ابراهيم كان شاعراً ، كان بلبلا خلق ليشدو كل شيء ، ليشدو في الفضاء الرحب لا في الاقفاص ، فلم يطرب كتشنر هذا الغناء ولم يعجبه ذاك الانطلاق ، فأقصاه ، واحيل الى الاستيداع ، وحكم عليه بالعصيان .

وهكذا وجد حافظ ابراهيم نفسه من جديد ، على رصيف الحياة ، وحتى ينس مأساته ، دفن ايامه في المراقص الشعبية والحانات والمسارح ، ومدح من مدح ، املا في رفع العوز ، وتحامي الفاقه . وكانت حياة حافظ وثيقة الصلة بحياة الناس ، فلم يصور بؤسهم تصويراً سطحياً فوتوغرافياً ، وانما صوره تصويراً حقيقياً واقعياً ، ذلك لان حافظ عاش البؤس ، عاشه في معركة ضارية . وكما عبر حافظ عن البؤس ، بؤسه وبؤس الشعب ، عبر ايضاً عن عاطفة الشعب الوطنية ، عبر عن نضال قومه ضد المحتلين الغاصبين ، فتبنته حركة الشعب في كفاحها القومي ، فاذ بحافظ ابراهيم شاعر الوطنية ، واذ بحافظ ابراهيم شاعر النيل .

ومن الاغوار السفلى ، احتل حافظ ابراهيم مكانه ، احتل مكانه بين شعراء عصره ، بين اسماعيل صبري ، وخليل مطران ، واحمد شوقي .

– التف الشعب المصري حول ثورة عرابي لان الثورة في واقعها الحي كانت تعبيراً عن ارادته في التحرر من الملكية المستبدة والرجعية الاجتماعية والنفوذ الاجنبي ووجد الشعب المصري في هذه الثورة امتداد لتقاليده الثورية التي تجلت في اوضح صورها وابرز مظاهرها في المعارك التي خاضتها ضد المماليك وضد التحكم العثماني وضد الاحتلال الفرنسي والعدوان البريطاني والبيت المالك . فلما اخفقت ثورة عرابي واحتل الانكليز مصر ، وتوطدت دعائم الملكية الفاسدة واشتد ساعد الرجعية الاجتماعية وتألبت قوى الظلام عليه لتقف في وجه تطوره التاريخي ووعيه الوطني عندما وجد الشعب المصري نفسه في مثل هذا الموقف دب اليه يأس وساوره قنوت وغدت قوى الظلام هذا القنوط وذاك اليأس لتحمله على الرضا بما قدر له فيستسلم لجلاديه ويستكين ولكن هذه الغفوة القصيرة التي اخذت بمعاقد أجفانه فاسترخ خلالها الى الدعة واطمأن الى الاستسلام وتوسد ذراع رواسب الماضي مالبثت ان زايلته فقد كانت تقاليد الشعب المصري الثورية من القوة بحيث انها نفضت من اجفانه سنة الكرى فوقف على قدميه وانطلق الى الامام ليحقق تحرره .

ولم تكن انتفاضة الشعب المصري انتفاضة مسلحة كما كان شأنها في الماضي وانما كانت سياسية قادها مصطفى كامل في المجالين الداخلي والخارجي ومن جديد وجدت قوى الظلام نفسها امام ارادة الشعب المصري الصاعدة ، ارادته في التحرر السياسي والاجتماعي التحرر من العدو الداخلي والخارجي الذي تحالف ضده .

تجاوب حافظ ابراهيم مع هذه الارادة فعبر عنها في شعره تعبيراً عاطفياً صادقاً وعكست قصائده انتفاضة الشعب فكانت صورة حية عنها تجاوب حافظ ابراهيم مع انتفاضة شعب مصر في تصديه للاستعمار فصور في شعره عزم الشعب المصري على النضال حتى النهاية وندد بالاستعمار وطغيانه هذا الاستعمار (الذي يقتل الشعب بلا قود ولا دية ولا رهب) وهاجم حافظ ابراهيم الاستعمار في شخص كرومر فوصفه (بالجلاد الذي البس البلاد

(الحداد) ودعا الشعب الى التمرد على طباع الذل التي اغرت الاستعمار باضطهاده وناهض اليأس الذي نثره المستعمرون فوق ارض مصر بغيـــة التحكم في شعبها والسيطرة عليــه كما ناهض الاستئثار ناهض اولئك الذين ينهبون ثروات مصر وخيراتها والشركات الاحتكارية الاجنبية التي تقصيد الشعب كما ندد حافظ ابراهيم بالفوارق الاجتماعية وارستقراطية المال والالقاب والرتب وصور الظلم المنظم الذي نزل ببـلاده والحرية الفكرية المضطهدة المغلولة ونصيب اولئك الذين يناضلون في سبيلها ويجاهدون لأجلها .

ولم تكن عاطفة حافظ الوطنية عاطفة محلية وانما كانت عالمية والاستعمار الذي ناهضه حافظ في شعره ناهضه في كل مكان في مصر والسودان والهند وندد حافظ بالعدوان ، العدوان الايطالي على بيروت والعدوان الايطالي على طرابلس الغرب على ان هذه العاطفة الوطنية في شعر حـافظ العاطفة المستوحاة من النضال الوطني التي الفت جزءاً هاماً من محتوى شعره كانت تفتقر الى نضج سياسي في تفهم الحوادث والاحداث فقد اراد حافظ بالدولة العثمانية وبسلاطينها وبأسطيلها وجيوشها متأثراً بعاطفته الاسلامية ومجـدده على الاحتلال البريطاني وغاب عن بال حافظ ان السلطتين العثمانية والبريطانية كانتا تمارسان حكماً استعمارياً سواء بسواء .

وتغنى حافظ بالانقلاب الدستوري في دنيا آل عثمان وكان باعث هذا التغني في نفس حافظ حرمان مصر من دستور ديموقراطي يحد من سلطة الملكية المستبدة وغاب عن بال حافظ ان الذين قاموا من الاتراك بالانقلاب واعلان الدستور لم يحققوا ثوره اجتماعيه ولم يهدفوا من وراء اعـــلان الدستور الا الى استبدال الحكم الفردي بحكم حزبي دكتاتوري .

لقد نظر حافظ ابراهيم الى الحوادث والاحداث نظرة منحـلة وكان مثله مثل غيره من الشعراء الذين لم يتزودوا بمعرفة ثورية تلقي على دربهم الضياء فيستبينوا العوامل الكامنة وراء سير حوادث وأحداث التاريخ .

على ان افتقار شعر حافظ ابراهيم الى النضج السياسي لم يحل بينه وبين اداته دوره في توجيد افكار ومشاعر وارادة الجماعات اذ لعب شعر حافظ دوراً غـــير يسير في اداء هذه الرسالة لاسيما في المجال الاجتماعي اذ وقف حافظ الى جانب الحركات الاصلاحية في جيله نظير حركة الشيخ محمـــد عبده وحركة قاسم امين والحركة المناهضة لتقاطع الاديان وقد تركت حياته الاولى من جهة وحياته مجتمعة من جهة اخرى تركت أثراً عميقاً في القصائد التي نظمها حول المشردين واليتامى ومستغلي قوت الشعب .

ان اهمية شعر حافظ ابراهيم ترتد في الواقع الى المحتوى لا الى الشكل اذ كان شعر حـافظ وثيق الصلة بالمجتمع الذي عاشه حافظ فكان شعره صوت هذا المجتمع التاريخي وبذلـــك كان شعر حافظ ثروة وطنية للشعر العربي واهمية شعر حافظ لاتقف عند حدود زمنه فحسب بل تتجاوز هذا الزمن ايضاً لانها عبرت عن آمال وآلام الشعوب التي منيت بمثل مامني بـه الشعب المصري ولانها مازالت تعبر عن آمال وآلام الشعوب التي مـابرحت تخوض معركة التحرر السياسي والاجتماعي والاقتصادي ولانها لوحـــة واقعية لمرحلة من مراحل التاريخ ، توفرت فيهـــا الصفة الوطنية لنضال الشعب .

كان المحتوى الاجتماعي لشعر حافظ ابراهيم موضع نقاش طويل بين جماعة الفن للفن وجماعة الفن في خدمة المجتمع فجماعة الفن للفن رأت في شعر حافظ ابراهيم انحرافاً عن غاية الفن الاصيلة وتجنياً على الشعر وتنكباً لطريقه في حين ان الجماعة الثانية رأت في موضوع شعر حافظ ابراهيم لباب الشعر ولكنها كان النقاش في الواقع بين فكرتين كل فكرة منها تمثل تركيباً اجتماعياً معيناً فكرة ترجع الاشياء الى الفرد واثره في الحياة وفكرة ترجع الاشياء الى المجتمع واثره في الحياة واحدة تؤمن بالقمة وثانية بالقاعدة والواقع ان النقاش كان بين مفهوم حضارتـين حضارة لعبت دوراً تاريخيـــاً في تطور الانسانية ولم يعد في مقدورها ان تواصل طريقها الى الامام وحضارة استدعى تكونها تطور الانسانيـــة التاريخي وهي منطلقة قدماً الى الامام ان هذا النقاش الذي كان يـدور حول موضوع الشعر وما زال يدور حتى الآن كان في جوهره تعبيراً عن التبدل العميق الذي طرأ على مجرى حياة العرب وحافظ ابراهيم حينما عبر في شعره عن اتجاه جماعة الفن في خدمة المجتمع لم يعبر عن هذا الاتجاه بوحي من نظرية يؤمن بها ويأخذ بأسبابها وانما عبر عن عاطفة وطنية تجلت في انتفاضة الشعب وجاشت في نفسه وانعكست في شعره ، فقد كان حافظ في شعره الاجتماعي صدى لذاك الاعصـار الوطني الثائر وصدى صادقاً لدويه لا صـدى زلفى تزحف الى اريكة بطولة الشعب متملقـــة الامجاد الوطنية لتحيا على هامش حوادثها واحداثها .

وكان موضوع الشعر في عرف حـافظ بالذات موضوعاً اجتماعياً فقد نقد حافظ اولئك الشعراء الذين يقفون شعرهم على المديح والهجاء والانس والكاس والحب والغرام وحض الشعراء على التحرر من هذا الاسـلوب الذي رأى فيه حافظ ابراهيم قيداً للشعر كما دعا حافظ الشعراء الى التحرر من العاطفة الذاتية والاخذ بالعاطفة الموضوعيه الى الاخذ بالفكرة الداعية الى وضع الفن في خدمة المجتمع .

أيجمل بالاديب اديب مصر	بكاء الطفل ارهقه الفطام
ويصرفه الهوى عن ذكر مصر	ومصر في يد الباغي تضام

وموضوع شعر حافظ الاجتماعي في حقيقته ليس بالموضوع الجديـد في تاريخ الادب العربي فقد طرق الشعراء القـــدماء باب مشاكل مجتمعهم الكبرى على النمط الذي طرق فيه حافظ باب مشاكل مجتمعه ولكن في نطاق الظروف التاريخية التي مر بها مجتمع كل واحد من الفريقين .

فنحن اذا عدنا بأنفسنا الى الماضي ، الى التراث الشعري الذي تحدر الينا من العصر الجاهلي نلاحظ ان الشاعر في ذلك الزمن مثـل افكار ومشاعر الوسط الذي عاش فيه فقد كان الشاعر لسان حال القبيلة يعبر في شعره عما يجيش في صدرها ويضطرب في قلبها فاذا نبـغ فيهـــا شاعر مشت العذارى بالدفوف تغني وترقص وانطلق الفرسان على صهوات الجيـــاد يهزجون وينشدون . والشاعر الجاهلي اذ يصور الحوادث الهامـــة في حياة القبيلة لا يتجرد من شخصيته الموفورة القوة وانما يضفي هذه الشخصية على قصائده واشعاره فيحقق بذلك التجاوب العميق بين الشعور الخاص والشعور العام . ومنذ اليوم الذي جعل فيه الشاعر الجاهلي من الشعر (معزوفة الباطن) فقد الشاعر في نظر القبيلة اصالته واضاع مكانته .

ولما ظهر الاسلام عاد الشعر سيرته الاولى فلعب الدور الاجتماعي الذي لعبه فيما مضى ، بات رسالة تبشر بالعقيدة التي دعا اليهـــا الاسلام من ناحية والنزعة الوثنية المناهضة للاسلام من ناحية اخرى ، ففي الوقت الذي كان فيه (حسان بن ثابت) يناضل دون العقيدة الجديدة كان (امية بن ابي الصلت) يناضل دون النزعة القديمة . ولما خفقت رايات العرب في الآفاق انطلق الشعراء في ظلال هذه الرايات الى القادسية وغير القادسية يحضون الرجال على القتال ويبشرون بالرسالة الجديدة .

ولكن هذه الظاهرة الاجتماعية التي رافقت الشعر في صـــدر الاسلام ما لبثت ان وهنت وضعفت فقـــد عاد الشعراء الى عالمهم الباطني وطغت الالاعيب اللفظية على الشكل والفردية على المحتوى ولم يعـد الشعر فكرة بل اصبح متعة . غير ان هـــذا الاتجاه الذي ران على الشعر العربي في

اعقاب صدر الاسلام لم يكن كل شيء في حياة الشعر اذ ظهرت اتجاهات جديدة تجاوبت مع طابع العصر السياسي وتجلت هذه الاتجاهات في شعر انصار البيت الاموي والبيت العلوي وشعر الخوارج والعصبية القبلية وقد عكس هذا الشعر في اتجاهاته السياسية آراء ومعتقدات اولئك الذي آمن بآرائهم واخذ بمعتقداتهم وهو اذا عاش عصره فانما عاش جانباً من جوانب هذا العصر وهذا الجانب هو المظهر السياسي اما العوامل الكامنة وراء هذا المظهر فقد ظلت في منأى عن الشعر العربي في العصر الاموي وذلك لعدم توفر النضج التاريخي لدى الشعراء لتفهم اسباب تلك العوامل ولان الارستقراطية الحاكمة في ذاك الزمن رفعت الشعراء الى مستواها بما اغدقت عليهم من هبات وحبتهم من صلات فلم يعد الشاعر يحيا وسطه فيعبر عن معضلاته الاجتماعية وانما يحيا وسط البيئة التي رفعته اليها وبذلك عاش الشعر في عزلة عن واقع المجتمع العربي .

ولم يكن شأن الشعر العربي في العصر العباسي بأفضل منه في العصر الاموي اذ ظل المحتوى واحدا مع فارق في الشكل ولكن الامر الجدير بالملاحظة في حياة هذا العصر الشعرية هو ان اتجاهين جديدين برزا الى الميدان في شعر هذه الحقبة من تاريخ العرب الاول (الشعر الشعوبي) الذي مثله (بشار بن برد) والنواسي ، ومهيار الديلمي ، وهو لون من الشعر ان دل على شيء فانما يدل على مدى التحول الذي طرأ على مفهوم العلاقات التي تؤلف بين اجزاء مجتمع المملكة العباسية .

هذا المجتمع الذي تحولت فيه العصبية القبلية الى عصبية اقليمية والنزعة الغيبية الى نزعة قومية والثاني (الشعر الوطني) وهو لون من الشعر تجلى في القصائد التي نظمها (عمرو بن عبد الملك) والاعمى والخريمي والخليع حول المعارك التي دارت رحاها بين الامين والمأمون ابان حصار بغداد حيث عبر هؤلاء الشعراء بصدق وامانة عن شعور الامة حيال الصراع الشخصي على الاستئثار بالسلطان وبطولات ابناء الشعب في الدفاع عن مدينتهم التي نذروا انفسهم للحفاظ عليها والموت دونها كما تجلى هذا اللون من الشعر (الوطني الشعبي) في قصائد المهذب الموصلي وابن القيسراني والعماد الاصفهاني وابن منير الطرابلسي الذين راحوا يحضون الامة في قصائدهم على مقاومة الاجتياح الصليبي وبدعوتها الى توحيد صفوفها لمقاومة الخطر الداهم ويصفون النكبات التي نزلت بساحة الوطن العربي من جراء هذا العدوان .

ان هذه النظرة العابرة على تاريخ الشعر العربي تعطينا صورة صادقة عن الدور الذي لعبه الادب في تاريخ المجتمع العربي ، فالشاعر العربي لم يعش فيما سلف من الايام في معزل عن وسطه وعن تأثيرات العالم الخارجي وانما عرف الحياة وصور الحياة في نطاق امكانيات ادراكه لتطور الانسانية التاريخي .

نسيب الاختيار

غروب

شعر الآنسة هند هارون

الدمعة الحمراء في الشفق
تنساب بين جوانح الافق
قد خضبت خد الاصيل دماً
مهراق .. من قلب لها قلق
فالشمس .. والآلام تعصرها
تلقي الوداع بطرفها الشرق
في الارض من اترابها فرق
امست لذاك الهجر في فرق
فالروضة الخضراء حائرة
يسري الذبول بزهرها الالق
لانور بعد الآن يغمرها
لاسحر في نوارها القبق
والغيمة البيضاء تائهة
والقبة الزرقاء في ارق
والورق .. في الافنان باكية
والنهر يهدر كالفتى النزق
فتن وعاها الطرف مدهشة
باللمغيب وروعة الفسق
الليل يزحف فاتحاً شرساً
ومن النهار بقية الرمق
والارض تسبح في دجى لجب
بئس البقاء بثوبها الخلق
والشمس قلت .. دابها حقب
كيما تعود .. بوجهها الطلق
صور من الالهام تتركها
شمس الغروب .. بقلبي الارق

اللاذقية — هند هارون

« الى الذين عملوا من اجل الجمهورية العربية المتحدة »

الصمت الكبير ...

بقلم : اسماعيل عامود — دمشق

العم « ابو عبدو » رجل في العقد الرابع من عمره ، صاحب محل لبيع اسلحة الصيد ومشتقاتها وتوابعها في « حي العمارة » بدمشق . ذو قامة بين المتوسطة والطويلة ، تحتفظ بصحة جيدة ، وعينين واسعتين ، لهما حدقتان نفاذتان ، يعلوهما حاجبان كثيفان ، يتوسطهما انف معتدل عادي ، وتحت هذا الانف ، اختلط شارباه في شكل منسق ، على شفتين قريبتين ، تبدوان في كثير من الاحيان مطبقتين في صمت مرهوب .

كنت فيما مضى من السنين العشرة السابقة .. عندما امر من حي العمارة ، في طريقي الى مدرستي .. في زقاق «النقيب» المتعرج ، الكثير النوافذ والابواب على الجانبين ، والذي يمتد بسرعة على الطرف الجنوبي من الحي المذكور .. اقف امام محل العم ابي عبدو اللحظات الطوال عندما كان محله هذا لبيع السجائر وعلب الكبريت .. وكان العم ابو عبدو يضع الزينات الجميلة امام محله والمؤلفة من اعلام بديعة الالوان .. تمثل اعلام الدول العربيـة من محيطها الاطلسي الى خليجها الرائـع في البصرة !! فتبدو واجهة المحل وكأنها اقواس النصر التي يقيمها الشعب والحكومة في كل مناسبة عيد او ذكرى جليلة ...

كانت هذه الزينات تأخذ شكلا خاصا في مخيلتي .. مخيلة الفتى الصغير السن الذي لم يتجاوز الثالثة عشرة .. كما وكانت تحمل الي معان شتى تسهر اغوار نفسي المغفلة ، التي لم تحدد بعد مفهوم الواضح لهذه الحياة الصاخبة العنيفة التي احياها في مدينتي .

لقد كانت نفسي تشبه الى حد قريب ، صحراء مترامية ..

وكانت تلك الزينات تأخذ في هذه الصحراء معالم واحات بديعة تلمع في خيالي ظلالها الوارفة .. في شعور ناعم لذيذ ، يفرق حسي في مطاول الذكريات الرائعة التي تنشأ في افكار كل طالب مثلي ، يدرس تاريخ اجـداده ، وما خلفوه من تراث سام عظيم ...

وكنت اجسد هـذه الزينات في عقلي ، فتبدو ، وكأنها الكواكب الكبيرة الكثيفة .. تطرق ابواب التاريخ بايقاع موسيقي .. من نصر الى نصر .. خلال الحروف المثبتة فوق صفحات الورق الابيض الناصع ، الذي تضمه دفتا « التاريخ » المحفوظ في حقيبتي التي اتأبطها في طريقي الى المدرسة ..

وكان وقوفي الطويل ، امام محل العم .. يكلفني تأنيباً من معلم الحصة الاولى في المدرسة لتأخري عن الموعد المحدد ؛ الحال التي جعلتني اترك المنزل قبل ساعة تماماً من بدء الحصوص .. وهذه الحال ايضاً كلفتني الكثير من الاسئلة عن خروجي مبكراً من قبل والدتي .. الا انني كنت في هاتـين الحالتين ابدو صامتاً .. لا احر جواباً .. ذلك لأن السبب لم يكن كبيراً يبرر وضعي المألوف ذاك .. ؟ بيد انني كنت اسر لهذا الوضع سرور الاطفال الصغار لحاجة جديدة تقدم اليهم .. !!

هذا ما كان يجري في الصباح ..

اما في المساء ، فقد كنت اترك خيالي العنان ، ليصور لي كل شيء في محل العم ابو عبـدو .. من رايات واعلام ، وشراشيب ، واشرطة ملونة ، ومصابيح مضاءة مختلفة الحجوم وكان خيالي حاذقاً ، ينشط في المساء اكثر منه في الصباح .. لا لشيء .. بل لانني — على ما يبدو آنذاك — كنت من الذين يعشقون الاماسي .. لاحتوائهـا على اللون الرمادي الغامض المعتاد .. ولذا فقد كان شعوري في المساء ، يختلف عنه في الصباح ، اختلافاً بينا ، يعذبني في تفسيره عدم ادراكي الواضح لما انا فيه ، من انتقال بطيء ، بين مرحلتي الطفولة والفتوة .. ولكنني في الباطن ، كنت اتبين هذا الشعور .. فيبدو ظاهراً جلياً ، مربوطاً بخيط ابيض ناصع من طرف .. ومن طرف آخر يتصل باشياء عميقة ، احسها في المدرسة ، خاصة في حصص التاريخ .. !! ولكن في كثير من المواقف كان هذا الخيط يصطبغ بلون احمر فان أفسره في عقلي بدماء من استشهدوا .. وذكرهم تاريخنا المجيد .. !!

اجل كان في المساء ينشط خيالي اكـثر فأكثر عندما يتشح بالوان النور المضـاء ، المبدد لخيوط الظلام رسل الليل الداهم ، وطلائعه لغزو النهار الجميل حيث يمـتزج الضدان في تماوج وتزاوج ، ويميس موكب النور في حلل الظفر القشيبة ، كأنه عروس الاماسي .

وكنت أنفرد بحزمة خاصة من هذه الانوار كان يحويهـا حانوت العم ابو عبدو وحده . وكانت هذه الحزمة ترسل على الشارع الممتد امام الحانوت ، اشعة بديعة تكسب المنظر روعة وخفة .. ! بينما تعكس اجمل فلولها وخيوطها الراقصـة الباسمة على صورة حائطية كبيرة وكاملة ، لشخصية رجل مديد القامة

مهيب الطلعة ، يوحي سيماؤه انه رجل ليس كالرجال .. ذو عينين حالمتين بآمال شعب ، واماني امة .. يعلوهما حاجبان كثيفان امتد بينهما انف مستقيم ، ينتهي بشاربين صغيرين ، مستطيل الوجه بامتلاء ، وخط الشيب فوديه ، وانحصر الشعر من مقدمة رأسه .

كانت هذه الصورة تعيد الى خاطري ذكريات حادثة عامة .. رددها الناس والمذياع .. والصحف معاً .. حتى ان اولاد المدرسة والمدرسين تناقلوا انباء الحادثة .

قال لي رفيقي هشام عنها :

- صار انقلاب .. ياعلي .

- انقلاب .. شو .. شو يعني انقلاب . ؟

- بيقولوا الناس انو .. الزعيم عمل انقلاب .

بيد انني لم اكترث لهذه الانباء ، وحتى لهذا الانقلاب ، كيف حصل .. ولماذا .. ؟ لان الحادثة كانت لا تحتل اي مكان في افكاري . لبعدها الشاسع عن مداركي ، وحدود فهمي للامور السياسية .. لان السياسة كانت بالنسبة لي ، ليست سوى حروف سود مرسومة على صفحات الورق الموزع باسم الجرائد .. في الطرقات . !

ولكن ..

وبعد مرور ايام قليلة على الحادثة .. تبدل شعوري ، واختلط بأحاسيسي . كما تختلط ذرة الخمر في كأس الماء الرقراق .. وبدأت محاولا معرفة السبب الذي من اجله اصبحت اقف اكثر من ذي قبل بالقرب من باب محل العم ابي عبدو ، كلما سنحت لي الفرصة بذلك .. فقد غابت الصورة الجليلة . التي كانت معلقه في صدر المحل ، وحل مكانها العلم ذي الالوان الثلاثة والنجوم الحمراء .. بينما يبدو العم ابو عبدو وكأنه لم يتغير ولم يتبدل .. فهو كما هو .. بشكله واشكاله . !

كانت الحيرة تأكل نفسي ، والشك يمزق خيالي الطفل ، وانا بين هذا وتلك كمن يعيش في ضيق روحي من امر هذا الوجود ونهايته ، ومتناقضاته ، وعما يحويه ويحتويه .. ومن حالتي هذه اخذت انسج لنفسي فلسفة خاصة لانجو بها مما هي عليه .. وسرعان ما تبلورت فلسفتي تلك عن معان كثيرة رسمت لي بخطوط اولية طاهرة في شيء من الوجل ، مفهوماً جديداً لوقفتي المتكررة العادية امام « المحل » صباح مساء . !

ولكن كيف لي ان افسر هذا المفهوم الجديد الطارىء .. ان كل ماهو امامي لا يتعدى الاشكال الجامد كأي اشكال اخرى جامدة .. صورة .. علم .. مصابيح .. رايات .. اعلام مختلفة .. صور لرجال فقط .. ؟ الخ .

لقد بدأت احس في شيء من الجفاف تجاه هذه الاشياء المعلقة في الحانوت .. والعم ابو عبدو لا يتبدل ، شعوراً ولا روحاً .. ولا شكلا في نظري وفهمي . !

كيف لا يتبدل هذا الانسان مثلي ؟؟ انني أتبدل مع الزمن .. ففي السنة الفائتة كنت في صف السادس الثانوي ، والآن في السابع .. كنت ارتدي بنطالا قصيراً وقميصاً بدون ربطة عنق .. فوقه رداء من نفس لون البنطال .. اما في هذه السنة فقد تبدل ما ارتديه .. حتى وضع شعري تغير ومداركي تغيرت وتطورت .. والوضع العام في مدينتي تغير ايضاً ، فقد حدثت حادثة اخرى انقلابية ايضاً اعقبتها حادثتين مماثلتين ايضاً .. وفي الاخيرة الثالثة تغيرت المفاهيم السياسية بين افراد الشعب واستشهد في ميدان الشرف رجل عظيم بكته العروبة وبكاه العالم .. بحيث تطورت معها احاسيسي ومشاعري واصبحت اعي كل شيء يحدث في المدينة .! فلم تعد تلك الاحداث التي مرت على البلد في مراحلها الثلاثة تكمن في اعماقي المجهولة .. كلا .. ولم تبق حكايات هذه الاحداث سراً يكتنفه ضباب فكري الطفل .. لقد تبلور الكون في عقلي ، وبدأت اكتشف فيه جزيرة تلو الجزيرة .. والمحيط اثر المحيط حتى ان الظلام اخذ ينقشع عن سماء نفسي الى نور بعيد المدى تتراءى خلاله معابد وهياكل ومزارات .. تبتهل فيها روحي في حب الوطن .. وكبر ايماني في هذا الحب حتى اخذ مني كل خلجة واغرى عندي كل جارحة ، تخفق وتنبض .. وبدأ ينتابني شعور كبير ، يصوره خيالي البكر كسيل جارف من العزة والمجد والسؤدد . فتحلم روحي بجحافل ابناء بلدي وهي اصر مترنحة في مخيلتي ، تضرب ارض احلامي بأقدامها الشديدة القوية .. بينما ترتفع روحي بأجنحة بيضاء ، لتخفق فوق مواكب العزة والقوة ، مباركة اياها في صلاة خاشعة سليمة وتمر هذه الجحافل كراديس كراديس حيث تغيب في مدى الذاكرة ، بينما تظل عيناي معلقتين بآخر فصيلة تتوارى عبر الخيال الناهض المستنير

* * *

في هذه الفترة نقل منزلنا الى حي آخر ، يبعد عن حي العم ابو عبدو مسافة شاسعة ، فلم يعد لحانوته في خواطري سوى ما للذكريات الحميدة من آثار محببة ، يلجأ اليها فكري

كلما شردت روحي في مهمة الماضي الجميل . ماضي الطفولة العذب ..

ومرت علي ايام وايام ، غاب خلالها شخص هذا العم ، عن ذاكرتي ، كما يغيب الحلم عند طلوع الصباح .. وشغلت في قضية من قضايا الحياة ؟ حتى كان يوم .. اقلتني فيه الحافلة التي تخترق حي العمارة في طريقها الى القصاع ..

كان الوقت مساء .. وكانت المدينة تودع النهار الراحل .. بينما أخذت أضواءها تملأ الامكنة والشوارع والحافلة تنساب على القضبان الحديدية .. برشاقة وسرعة . .

كنت اذ ذاك ، في غمرة خيالاتي البعيدة والقريبة معاً . . وفجأة داهمت الحافلة أنوار باهرة اخترقت النافذة التي كنت اجلس الى جانبها .. فالتفت الى مصدر النور ، وكأنما يد خفية حسرت الستار عن امس بهيج ايقظت فيّ غافي الذكريات ، يوم كنت خلوا من تبعات الحياة .. ذيّاك الامس الحلو ، يوم كنت تلميذاً أتأبط حقيبتي غاديا الى المدرسة حيث يلقاني تأنيب المعلم .. ورائحاً الى الدار حيث تقريع الوالدين . . وكان على ما أظن هذا النور بالذات هو السبب في كل هذا وذاك ، فلم لا أقف اليوم دونه . وانا حر من كل وثاق . لأجلو فيه غبار السنين المتكاثف في تلافيف اخيلتي الواعية ، ولم لاتملأه في خشو .

الم يكن مرتع صباي .. وملهى احلامي .. ؟؟ !

ورأيتني انحدر من الحافلة في ذهول ، متجهاً نحو الاضواء المنتشرة بقوة .. يا لله .. لقد كثرت هذه الاضواء اكثر من عهدي بها كأنما عامل الزمن زاد في معانيها ، فغدت اكثر عدداً وأسطع نوراً ، وأبلغ على محو الظلمات . فمعالم الزينات من الرايات والاعلام العربية هي . هي . والحانوت هو هو . لم يتبدل منه شيء ، سوى تلك الصورة المهيبة الطلعة التي اختفت وراء العلم فترة من الزمن ، ثم ما لبثت ان برزت ثانية اكثر مهابة واروع بهاء . واحتلت مكانها السابق. تحوطها الانوار المصطبغة بألوان جمة تحاكي علم الثورة العربية ، احمره واخضره ، واسوده وابيضه . وكانت هذه الالوان تشوب روحي وتأخذ في مخيلتي شكلا خاصاً يسبر اغوار نفسي اليقظة ، فأفهم له الف معنى من معاني النضال والكفاح في مضمار النداء والتفاني . من اجل حياة افضل وبقاء امثل وعيش رغيد . !

حتى ان العم ابو عبدو ما برح هو . هو . بشاربيه المنسقين وعينيه النفاذتين ، وهدوءه المتزن الرصين ، وشفتيه المطبقتين ، وصمته المرهوب وشخوصه الحالم كأنما كان وما زال ينسج الحكايا ليزفها الى التاريخ عرائس حسان ، عناها من الزمان ما عناها .. وكأن هذه الفترة الوجيزة من الدهر لم تستطع الصعود على سلم حياته او الولوج الى حانوته حيث شجبها من عمر الزمن وكأنها لم تكن . ؟ !

وتركت المكان .. وفي خاطري اكبار واجلال لهذا الرجل الذي رافقته مراحل ترعرعي وتمنيت لو اكون هو . هذا الانسان الذي عمل بمفهومه الخاص لفكرة متأصلة في نفسه يروم تحقيقها ببالغ الثمن .

لقد كان لفكرته تلك انعكاس مؤثر في نفوس ابناء الحي ، فهو ان وشع الزينات ونظم الانوار ورتب الصور في حانوته ، فهذا كل وسيلته الخاصة للتعبير عن شيء عظيم سيحدث لا محال فهو لا يكتب مقالات الحماسة ، ولا يسطر مواضيع الدعوة ولا يقرض الاشعار الملتهبة ولا يغني الاناشيد .. بيد ان تعبيره عن فكرته كان يتجلى – حسب ظني – في كل الاشياء الموضوعة امام حانوته .

ان لغته هذه كانت بالنسبة لأبناء الحي ابلغ اثراً واشجع سبيلا من غيرها . ولقد اعطيتها من عندي بفرق اي معنى آخر آخذه مما ينشر ويكتب ويغني .

ولقد اخذت فيما بعد أرتاد الحي بدافع ملح فأرى فتيان منظمة « المقاومة الشعبية » ينظمون انفسهم حلقات حلقات تنعقد على الارصفة وقرب المنعطفات ليستمعون الى ما يلقى من خطابات وكلمات من المذياع الذي وضعه العم امام محله على المنضدة .

لقد كنت اقف بجانب هذا المذياع وفي اعماقي ترتسم الف اشارة استفهام ، ؟ فيتجسد هذا المذياع في نظري ويتجسد حتى اني خلته في لحظة من لحظات شرودي العم ابو عبدو وهو يهدر بصوته الاجش ونبراته القوية ..! وكانت حلقات الجموع المحتشدة في الحي تقف بصمت كبير وتبدو من بين رؤوس هذه الجموع افواه البنادق الجديدة تلمع تحت الاضواء المنبعثة من الحانوت ومن بقية الحوانيت على الجانبين وكأنها في جوع مرير تنتظر طعاما لذيذاً من الطلقات النارية الداوية .

ويظهر العم « ابو عبده » بيننا ، وكأنه قاسمنا المشترك .. يتميز عنا بأشياء عديدة ، ذات خيوط رفيعة ودقيقة .. هي التي

البقية على الصفحة « ٣٢ »

قوميتي السمراء

ألقيت بمناسبة تدشين الكهرباء
في بلدة المياه المعدنية الدريكيش
تحت رعاية وزير الشئون البلدية

رفعتم منـارا الضياء فـأشرقت
بـكم قبـل لألاء الضياء رحابي
وما كنت ادري ان كفا سخية
تفجّـر بالنـور الشهي تراي
تفضلتم بالنور لكن حـــاجتي
الى الماء فاضت عن شجون خطابي
فكم زحفت هذي الربوع على الظما
وكم رقدى بالوعد خلف السراب
اذا مرحى في نورها كل غادة ،،
فقد رقصت خلف الظلام كعابي
وان نثروا في العيد زهراً فانني
أريق دمي في كهفه وشبابي
لقوميتي السمراء نجدي ومغربي
وللوحدة الكبرى غدي ومآبي
تجدد شعبي يوم وحدتة كما
تجدد نور الشمس بعد غياب
وكم رد شعبي قبل ذلك عاصف
لتقريف اشواله وخوض صعاب
وكم سامه استعماره خلف ليله
عبادة اصنام وذل رقاب
وارسل فيه عبد ناصر صيحة
تفجر نورا وهدي وسحابي
وتبعث فيه غضبة مضرية ،
تعيد الصلاب الصم غير صلاب
وتنثر تيجانه الملوك على اللظى ،
طعاماً لظفر كالهيب وناب
ويا ويح اقراط لربه لندن
ترف قنالي او ترف شعابي
تحن الى نعل العروبة بعدما
تجنى على الدنيـــا اغض اهاب

سلوا عدنا او مسقطا هل تطامنت
وهل عرفت فجرا بغير حراب
لنا هدرة البركان ينهد خلفها
توثب اشبال وهدرة غاب
وللنار في وهران يوم وتقلبت
رواب على تصحابه وروابي
ودارت رحى قوميتي فتناثرت
وغصت بأشلاء الضلال رحابي
وفي كل شدق من لظاها تمايلت
وفود نسانيس ورهط ذئاب
لملحمة التاريخ خلف جميلة
وخلف ابن بلا الف الف كتاب
ادل على ارض القتال سرادقي
وعاد الى شط النجوم عبابي
وعاد الى عرينه كل شامخ
تلاشى حنيني عنده وعتابي
اضاءت ربى ذي قار فامتد نحوها
بنور سعيد الف الف شهاب
وماجت بخيل الناصري ورجله
روابي رؤوس لارؤوس روابي
وأوماً للجلى جمال على اللظى
فكان الدم الغربي خير شرابي
وماءت شعوبيات قومي بجحرها
واتلـع فوق النجم كل عرابي
طلعنا على الدنيـا حياداً مظفراً
حيـاء ليوث لاحياء رهـــاب
طلعنا على الدنيا بجـــل لرزئها
وقـــد كانت الدنيا بغير جواب
ولم يبق الا شارده عن عرينـــه
يودّع أمجادي لغـــير اياب

الصمت الكبير ـ بقية

ومعنى .. تتقارب ثم تتنافر .. الى ان تزدوج فتتزاوج .. جعلتني أقدس هذا الانسان ، واترجم تقديسي هذا بألف لغة فتلد بأفكاري مفهوماً عفوياً للوطنية الخالصة ، من كل شائب .

فهناك بين أبناء شعبي . الكثيرون اذن . الذين يفسرون الشعور بالوطنية لنفس تفسير العم « ابو عبدو » .. انهم يشعرون بها في كل شيء .. انهم يرون الوطنية في الاشياء كلها .. ولشعورهم هذا فلسفة .. عظيمة .. تفوق كل شيء عظيم مثيل ..

انهم حقاً يعرفون كيف يعملون بصمت .. كيف يضعون الوطنية .. ويضعون لها الركائز .. لاجيالهم القادمة الصاعدة ..

ولقد عبروا فعلاً مناعتهم ، عندما كان اليوم الحادي والعشرون من شهر فبراير (شباط) من هذه السنة المباركة « ١٩٥٨ » يوم قامت الجمهورية العربية المتحدة .

* * *

واليوم عندما تمر بأبي عبده ، في حي العمارة ، لاتجد على محله سوى علم واحد كبير ، الى جانبه عدة اعلام صغيرة اخرى مشابهة ، ومصباح كهربائي جميل واحد ، ولوحة صغيرة كتب عليها بخط جميل مذهب :

« ان الرئاسات ، عهود على اصحابها ، وديون في ذممهم ، وحقوق على رقابهم ، التوقيع « **شكري القوتلي** » .

(كانت القومية العربية ، فكرة ومعنى ، واصبحت اليوم حقيقة واقعة ، التوقيع « **جمال عبد الناصر** » .

ولو تقدمت اليه تسأله عن زيناته الجميلة السابقه ، لأجابك ببساطة وبلهجته العامية الشامية المحببة ..

يسقي الله هديك الايام يا ابني ..

والله والجمهورية العربية المتحدة هي أحلى زينتي .

مد الله بعمر ابناءها الاحرار ...

دمشق

اسماعيل عامود

يقرب « هولاكو » ويبعد يعربا
وما هو خلف الحكم غير ثياب
وقد طال للباغي احتمالي على الاذى
وضاق به صبري وعيل صواي
سنسفعه حتى تلين قناته ،
فما كان للجلى بكبش ضراب
وقالوا : زعيم أوحد فعذرتهم
لقد رفعوا للشمس عود ثقاب
وما ضر ان ضحوا بألف مدجج
ليظفر « هولاكو » بكأس شراب
لقد راعهم خلف القيود غضنفر
تنوء السعالى خلفه وتحابي
يعدّون للجلى نصابا محكماً .
ويعدو فجلاهم بغير نصاب
يمزقهم ان حاولوا مسّ كبره
ويتركهم نهباً لاي جواب
ويرحمهم طوراً فان احدقوا به
ترفع عن ظفر اشل وناب
فأين « الزعيم الحر » هل هشّ مرة
ليلقى مع الرئبال أيّ حساب
وهل جاذبته ثانياً أو هفت به
خيانة أهداف وغدر صحاب
تجل عن العهود الخئون مواكبي
وتسمو عن العهود الخئون ركابي
فهل كان من شعبي احط حثالتي
وهل كان من تبري اخس ترابي
ابر من الفجر المنضر امتي
وانقى من الزهو المدل شعابي
غدا ويك مهداوي تبدو معالمي
وتدرك يا وغد العراق طلابي
غدا في ذرى وهران والقدس تلتقي
مع الوحدة الكبرى اعز هضابي
غدا تبتر الاذناب في وهدة اللظى
وتشمخ فوق النيران رحابي
غدا تنثر الاذناب في وهدة اللظى
وهل كان غدار بغير حساب

الدريكيش ـ نجم الدين الصالح

صوت السكون

بقلم

الآنسة نبيلة جبور

من المتعارف عليه علماً ومنطقاً ان السكون اخرس، واما الاصوات وسماع الضجيج فذلك في النهار دون الليل.

من السعادة لا يشعر بها الا من اتبع طريقها ، ولايمكن ان اصفها .. فعند كل من ضحى في حياته الجواب فقط وزاد النقاش بين الاثنين

ونشأت وتعارفت على ما آمن به كل من سبقني في بيتي ومجتمعي . آمنت بالواقع الذي لمسته تجاربي الاولى ، فان صحوت في الليل لم احاول ان اصغي لسماع اي صوت اذ ان الصمت العميق واضح لا يتكلم

ومرت الايام ، وكبرت وزادت مسؤولياتي وواجباتي وبالتالي رغائبي وتمنياتي للمستقبل . وصحوت في الليل على صوت هو اشبه بالطنين القاسي يخاطبني بلهجة المؤنب

ايتها الانانية ، لماذا تحاولين الفرار من واجبك تجاه من حولك ولا تفكري بما سيحدث لهم لو قطعت مساعداتك عنهم .

فهذه امك مريضة ، وأبوك عاطل عن العمل واخوة صغار تلتف حولك وكأنها الفراشات حول الزهرة تستشف منها الرحيق القليل الذي اعد لها في تكوين صنعها . انت المورد الوحيد للعائلة فكيف يلي عليك قلبك الفتي بالرحيل الوقت لم يفت بعد ، وسيأتي يوم آخر لو اضعت فرصتك هذه لتحصلي على بيت وأولاد لك وحدك .مثلما ترغبين ، ولكن لا على حطام هؤلاء الصغار الذين هم حولك كما ستفعلين لو قبلت الانفصال عنهم الآن . وقبل ان اجيب نعم او لا .. كان هناك آخر قد سبقني الى استلام الجواب .

ــ وهل تضمن ما تقول بأنها ستجد من يرضيها ويسعد قلبها ويصدق املها اذا ما فاتت نصيبها اليوم ؟ وان وجدت فهل سيستحوذ رضاي كما هو فاعل فى اليوم ؟

وأجاب الصوت الاول .

ــ قد لا اكون قادراً على الضمان مطلقاً ، الا ان من الواجب التضحية في مثل هذه الحالة . وفي التضحية كثير

وانا اسمع صاغية حتى اصبحت لا اقوى على ذلك سبيلاً بعد ان علت اصواتهم ، واضحت ضجيجاً شديداً وجلست بسرعة في فراشي وفركت رأسي بيدي فشعرت براحة نوعاً ، وعدت الى النوم .. وعرفت في الصباح فيهما .. صوت الضمير والقلب . حاولت عبثاً ان استرد ما قالا في سكون الليل فلم استطع ذلك . وعشت نهاري اشعر باعماقي تريد الكلام ولكن بدون جدوى .. شعرت بها تريد الليل.



تريد السكون لتفصح عما ترغب قوله .. ومضى النهار باصواته المتعددة وضجيجه الذي لا يعني شيئاً .. واتى الليل وكان ما اردت واستكان قلبي وضميري وعادا الى الكلام .

ومرت الايام وكنت في نهاري انسانة ضعيفة اصغر من ان اقف الى جانب ضميري الواعي ومن يومها لم اعد اسمع تلك المناقشة القاسية في الليل . حينها ظننت ان ما فعلته كان خيراً واني قد اضحيت كلاً منسجماً لا يعارض صوت فيّ الآخر . واطمأنت نفسي وظننت ان ضميري قد رضي بالامر الواقع ووافق ورضخ اذ انني مهما حاولت استرجاع صوته الآن لم اكن اقدر على سماعه .. فظننت في ذلك كل الموافقة . واسترحت برهة واتتني الاحلام في اليقظة ، اثناء السكون ، وفي المنام كلها تدور حول فراشات تحوم قرب النار تطلب الدفء فتحترق . وكنت قد صمت صمتاً كاملاً . سمعت زقزقة مبحوحة لعصافير بعيدة .. وأصوات أنات خفيفة لا تلبث ان تنقطع . كل هذا في السكون ، وما ان يأتي النهار حتى ارى نفسي انا التي كنتها في الامس ، سائرة في الطريق الذي اخترته لنفسي دون تردد وأسأل اين تلك الاصوات التي

كلمتني في الليل وجعلتني انقسم على نفسي؟اين تلك الشخصيات المتعددة التي تراءت لي في الليل لتخاطبني وكأنهـــا حقيقة واقعة ؟ اين هي مني

جلست وحدي بعد ان اغلقت الباب على نفسي اطلب منها في النهار ان تعود، ولكن ضجيجاً خارجياً لا يعبأ به احد كان يقطع عليّ محاولاتي ، فأتركها لاطلب اللقاء معها ثانية .. في الليل . وبعد زمن ذاقت به عائلتي التي انسلخت عنها في غير الوقت المناسب ، المر مراراً عديدة ، استطاعت ان تسترد شيئاً من كيانها بعـــد ان عمل اخي وبدأ في سنه الاطلال المتداعية ، حتى تلك الساعة كنت لا أزال في لقاء دائم مع تلك الاحلام ، مع تلك الاصوات التي لا تضج الا في السكون . وبدأت تختفي يوماً بعد يوم حتى ذهبت عني جميعها .

وأفقت في احد الايام على صوت عرفت به صديقاً قديماً في الليـــل عرفته لمدة طويلة ، قائلاً لي : ــ الم يكن باستطاعتك ان تدفعي عن اهلك كل ما ذاقوه في هذه المدة التي مرت عليهم من العذاب ؟ ولكن اشكري ربك ان النهاية كانت على خير .

وقلت : ــ اين كنت ايها الصوت ؟ لم اسمعك منذ زمن طويل ، كيف هجرتني ؟ كنت تعذبني ولكن ، ولكن ثق ان صوتك كان اكثر الاصوات راحة لي عندما اصغي اليك تتكلم .

ــ عجيب ايتها السيدة ، أردف الصوت ، ألم تشعري فعلاً انك انت التي منعتني عن الكلام طوال تلك الايام منذ ان غلبني صوت قلبك في تلك المناقشة التي سبقت رحيلك عن بيتك القديم .

ــ هل تعلم انني لم ارتح من بعدك في السكون طوال تلك المدة ؟ وقهقه ضاحكاً ، ثم قال : ــ انه صديقي اللاشعور ، انه في ظلينا (أنا) ومنافسي دائماً ، دون ان نشعر بوجوده بيننا ولست اول من قال لي انه اتى يسمعك اصواته ويريك اشباحه لما فارقته (انا) .. فهذا دأبه .. ما ان يرى احدنا قد فشل وانسحب من الساحة حتى يأخذ هو مكانه اذ يرى ان المجد قد اتيح لوجوده . واظن ان لديه من الاصوات ما يعلو على صوتي وصوت القلب مسافات .. الا انها اقل وضوحاً أليس كذلك ؟ .

وقلت للضمير ــ فعلاً انه قد اذاقني من العذاب ما لم اشعر به من قبل قط . انه جسّم لي اموراً غريبة ليس لي علاقة بها .

ــ ليس لك علاقة بها ؟ انك تخطئين فهمه .. ان صديقي اللاشعور يمثل اعظم ، يغير ويبدل في الاشخاص وحياتهم ولو انتبهت جيداً الى اعمق اصواته لعرفت بها من تركتهم وراءك ، وغطيت رأسي لا اريد ان اسمع بعد ، حتى هـذا الصوت الذي الفته وارتحت اليه .. ومن يومها غابت عني اصوات السكون . لبرهة لتعود الي مع كل موضوع جديد يحدث لي في النهار .. تنتظر الليل لتطلق لنفسها العنان في السكون . ظننت بي مساً من الجنون من كثرة اختلاطهـا علي ودوامها معي ، فرحت اسأل من اعرف من الصديقات والاصدقاء ان كان يحدث لهم ما اعاني ، فلم استرد جواب لا أبداً ، واستطعت من يومها ان أؤمن ان النهار هو عتبة الليل وان الانسان يتحرك في النهار ليعيش في الدجى ... وما ضجيج النهار الا تذاكر مرور يصل بها كل منا الى ليله ، الى ضميره ، الى قلبه ولا شعوره الى تلك الفترة الحقيقية من الحياة التي يسمع بها اصوات نفسه اصوات السكون .

نبيلة جبور
ب . ع شؤون اجتماعية

مذهب فتاة

بقلم
حسن حام

كانت هبات نسيم الصباح عليلة ندية تنعش النفس وتبعث فيها شتى العواطف والاحاسيس ، فتشعر المرء ببهجة الحياة وجمال الوجود . وكان مركب « ابو جاموس » راسياً على الشاطيء الشرقي للنيل ، وكان به بضعة طلاب من طلاب الجامعة جالسين منتظرين اكتمال العدد حتى يحملهم الى الشاطيء الغربي حيث تربض الجامعة بكلياتها المتعددة .

ما ان خطوت الى المركب بخطوتي الواسعة واستدرت لأجلس حتى رأيتها تقف على حافة الشاطيء وفي عينها حيرة وتساؤل ، تريد ان تصعد الى المركب ولكن ... من يأخذ بيدها ؟

لم أدر من أين اتتني الشجاعة في تلك اللحظة . أمن عينيها السوداوين وشعرها الاسود الفاحم وقوامها الفارع أم من وجهها الذي يتفجر نضارة وسحراً ؟ . فلم أرإلا ويدي تمتد اليها لتأخذ بيدها ، ولم ادر لماذا لم تمد الي يدها الا بعد ان رفعت نظرها الي وعلى ثغرها ابتسامة مشرقة كاشراق فجر ذلك اليوم . ثم خطت خطوتها فكانت أرق وأخف من هبات النسيم التي كانت تهب علينا فتبعث في نفوسنا انتعاشاً ونشوة .

وماهي الا برهة حتى أرخى (ابو جاموس) عنان الشراع لمركبه فانساب يشق عباب النيل حاملاً نفوساً مليئة بالاماني والاحلام ، فقد كانت تلك الساعة من الساعات التي تذكيها وتبعثها جياشة قويه ، وخيم علينا صمت خيل الينا أنه طويل ، لايتخلله الا صوت الماء يشقه المركب بحيزومه .

واخيراً التفت الي احد الطلاب قائلاً وهو يضرب على ركبته بيده « ايه ... ابو شام ازاك النهارده » وكان تحت عبارته شيء من التعريض ثم اردف (ازاي سيبويه كان ...) قلت انا وهو بخير مادمتم بعيدين عنه ، وعلت قهقهة من الطلاب ، اما هي فقد افتر ثغرها عن ابتسامة خفيفة وقد أخذت عيون بعضهم تنتقل مني اليها ومنها الي .

ثم غرقت الجماعة فيلجة من الصمت لم ينتشلهم منها الا صوت (المراكبي ابو جاموس) هوب . . . هيلا . اخذ الطلاب يقفزون الى الشاطيء أما انا فتأخرت عن النزول بحكم مجلسي في مؤخرة المركب وتأخرت هي ايضاً . ثم نزلت ونزلت وراءها .

لم أشأ ان اتقدمها لئلا احرم رؤية ذلك القوام الاهيف والشعر المتموج ولئلا احرم ذلك الشذا الفواح الذي كانت تحمله الي هبات النسيم منها فيعطر جوانب نفسي ويبعث فيها نشوة سحرية .

وحاذيتها عندما بلغنا باب حديقة الاورمان وكأنها شعرت بي فرنت الي ولكني اسرعت فدخلت الحديقة وكأني اهرب من وقع تلك النظرة .

على شاطئك ايها النيل كان اول لقاء ، وعند بابك ايتها الحديقة كان اول فراق .

دخلت « معهدي » وسمعت المحاضرات فكان شبحها الحاضر وخيالها المتكلم ، كان شبحها يتراقص امام عيني في تلك الحديقة الغناء المحيطة بالمعهد ، فوق اشجارها وبين ازهارها .

رجعت الى نفسي املك وعيها فما وجدت بها وعيا . رجعت الى فكري اضبطه واوجهه وجهة غير التفكير فيها فكنت كمن يحاول ان يقبض على الماء او يحاول امساك طير مهيض الجناح ، ما ان يهم بامساكه حتى يثب ويعدو نافراً من بين يديه .

كنت افكر فيها ، كيف أراها ؟ وأين أراها ؟ على شاطيء النيل أم في الجامعة . هاهي الجامعة قريبة مني ! ولكن في أية كلية من كلياتها هي . . من هي . وما اسمها ومن اسأل عنها ..

● ● ●

كان منزلنا قريباً من الشاطيء الشرقي للنيل يشرف عليه وعلى مركب « ابو جاموس » الذي يحمل الطلاب الى الشاطيء الآخر . قلت : انتظر في الشرفة صباحاً حتى اذا لاحت هرولت مسرعاً الى المركب فأراها فيطمئن الفؤاد ويشفى الغليل .

وكان ما قلت فما ازفت الساعة الثامنة صباحاً حتى لاح لي قوامها الهيف كقوامها يتهادى على الشاطيء ميمماً شطر المركب فرحت اسرع في النزول اقفز درجات السلم خمساً وعشراً . وماهي الا هنيهة حتى كنت على الشاطيء قرب المركب الذي اخذ ينشر شراعه للسير ، وتعالى صوت بعض الرفاق يهتفون « بالمراكبي » هب ... هب . . . ياريس والبعض الآخر يهتف بي ! اجر ياسير . بالخيبة القلب وعذاب النفس ، كانت الفتاة غير التي هام بها القلب وخفقت بحبها الجوانح وتطلعت اليها الروح .

وصل المركب الشاطيء الغربي للنيل وخرج منه الرفاق وخرجت الى اين اذهب وميعاد المحاضرات في التاسعة أأجلس في الحديقة حتى يحين الوقت ام اسير على الشاطيء لعلي أراها .

نعم : لأجعلن الشاطيء مسرحاً لخطواتي فلا بد ان اراها :

أخذت اسير والكتاب مفتوح بيدي تنتقل عيناي بين اسطره تارة وترنو الى الشاطيء اخرى .

● ● ●

أقلع مركب من الشاطيء الشرقي وكأنه يقول : جئتك بين تحب ، قف لاتثب ايها القلب فعيناي قد تخطيء ، قف لاتطر ايها الفؤاد فهي قادمة اليك .

صعدت درجات السلم بخيلاء القائد المنتصر وسحر الغادة الفاتنة وهي تجمع ماتشتت من شعرها المتهدل على كتفيها .

ايها الكتاب : انت تعلم كم صفحة من صفحاتك قلبت في تلك اللحظة ولم اقرأ منها حرفاً . ايها الكتاب اظنك سمعت خفقات القلب وشعرت بحيرة النفس وبهر النظر ، شعرت بالكهرباء كيف سرت في جسمي ، شعرت بذلك كله وسمعتني ارد تحية الصباح بأحسن منها وانا احاول التجلد خوف التلعثم . وسمعتها ايضاً تقول « إزاك النهارده يأستاذ » .

وسمعت فؤاد يجيبها – أنا بخير وسعادة لأني رأيتك فهل تتكرر هذه السعادة ...

في الساعة السادسة امام كازينو بيبا ... في الساعة السادسة . . ورحت اردد هذه العبارة وكأنني صوفي اصابه الوجد فهام . اخذت اردد هذه العبارة التي فيها شفاء للنفس وري للفؤاد الظمآن وشبع للروح الساغبة وانا انظر الى ساعتي وقد همت يدي بادارة عقاربها .

وقفت انظر اليها لامتع طرفي بنظرة عجلى منها فاذا بها قد توارت بين ذلك الجيش اللجب من الطلاب وقد اخذوا يتدفقون من حافلات الترام ويتجهون نحو باب الجامعة .

كانت الشمس تجمع ما تبقى من خيوطها على رؤوس اشجار الجزيرة الباسقة ، وكانت هبات النسيم تداعب وجهنا بلطف فتشعرنا بالغبطة والنشوة والسعادة ، حينما كنا نسير على شاطيء النيل يداً بيـد وجنباً الى جنب .

وكثيراً ما التقى النظران وطال التقاؤهما في نظرة تائهة حالمة تتناجى فيها الروحان حتى تكاد تغوص كل منها في اختها حناناً وشوقاً .

قلت : ان اول ساعة شعرت فيها بالسعادة في حياتي هي تلك الساعة في ذلك الصباح البهيج وفي هذه الساعة في هذا المساء الممتع ، وعسى ان تمتد ساعات السعادة الى زمن بعيد .

قالت : سوف لا تمتد الى ابعد من هذه الليلة وبعدها يكون الفراق .

قلت : في دهشة وانا احاول الابتسام . ولم ..؟ فقلبت شفتيها ولم تجب .

قلت : ان كثـيراً من الفتيات يتركن العنان لدلالهن ... ولكن ليس من اول لقاء .

قالت : انا لست كبنات جنسي ، فذهبي غـير مذهبهن ومبدأي غير مبدئهن ، انا لا اطيب الالقاء واحداً من حبيب واحد ، انا لا اطلب الا ساعة واحدة اتمتع فيها بمن ملت اليه في وقت من الاوقات ، اغوص فيها في بحر من اللذة والاستمتاع ، انهل من معينه حتى ارتوي ، ثم بعد ذلك اترك هذا المعين وان لم ينضب الى عين ثرة اخرى فأعب منهـا حتى اظن نفسي انني سوف لا اظمأ ابداً . فاذا ماظمئت بحثت عن نبع آخر جياش فوراً يسقيني فيرويني .

أرأيت وردة من ورود كثيرة ، حين تراها فتعجب بها ، فتقترب منها ، ثم تشم عبيرها وعند ذاك تنعش نفسك وتبعث في روحك نشوة ، ثم تتركها ، حتى اذا رأيت وردة غـيرها ظهر نفس ذلك الاعجاب وبدت منك تلك الرغبة والعاطفة ، فتقترب منها فتشمها وتداعبها بأناملك وربما تقطفها لتتمتع بها قليلاً ، فاذا ما ذبلت في يدك اوجفت نضارتها ، القيتها ؟ .

... وهكذا نحن .

انا وردة فواحة الشذا ناضـرة عاطرة بالنسبة لك وانت زنبق زكي النشر طيب العطر بالنسبة لي ، يتمتع كل منا بالآخر تمتع الانسان بالوردة والنحلة بالزهرة ، ثم ينتقل الى زهرة انضر واعطر رآها فراعـه جمالها وبهاها . وان لم نكن نحن كذلك ، فهكذا يجب ان نكون حتى نقضي اكثر ايامنا في هناء وحبور .

والآن اسقي من معينك ما استطعت وسأسقيك من عيني ما استطيع .

كانت اماني واحلامي قصوراً شاهقة فاذا هي ركام مهدوم . كانت اماني وردة ناضرة فواحة العبير فاذا هي وردة ذابلة جافة لا رائحة ولا روح . كنت اظن نفسي في سعادة فهي سعادة القلب الذي اضناه الحرمان ثم بعد لأي وجد القلب الذي يحن ويعطف عليه ويسعده ، فاذا بهذه السعادة التي توهمها القلب شقاء مبين .

وقفت مبهوتا امام منطقها الذي لم تقل به انثى . وقفت حيران أألبي نداء الحب الذي كاد يعصف بي ، نداءها هي ، نداء ذلك الوجـه الفاتن والقوام الفارع والعيون الحالكة الساحرة وهي تنادي بشوق ولوعة ، أم ألبي نداء الروح التي عشقت فيها الجمال الطاهر ، عشقت فيها ما ظننته - وهو ما يطلبه الرجل من المرأة - الاخلاص والحب الدائمين .

حاولت ان أبين لها وخطر خطأ فكرتهـا فأسكتتني بقبلة هي نار تلظى وهي تقول :

دع عنك لومي فان اللوم اغراء
وداوني بالـتي هي كانت الداء

ثم قالت : صفو اتيح فخذ لنفسك قسطها
فالصفو ليس على المدى بمتاح

فهيا لنأخذ قسطا وفوق قسطنا قسطاً ، هيا لنرد هذا النبع الفوار ونعب منه بقدر ما يستطيع ان عدنا به فما قليل ينضب ويجف .

كانت كل جارحة فيها تعبر عما في نفسها ، بل كانت تضطرب اضطرابا كله اغراء وفتنة .

وكانت نفسي تبيت على عطش مرير حتى كاد ان يقتلها الظمأ ، فاذا بها ترى الماء امامها صافيا عذبا سلسبيلا للشاربين فلماذا لا تشرب . . ؟ كانت نفسي جائعة ساغبة فاذا بها امام اكل شهي فلماذا لا تأكل ؟ كانت نفسي تائهة في بيداء محرقة من الحرمان قد انهكها التعب واحرق قدميها حر الهاجرة ولفح وجهها ريح السموم واذاب وجهها وهج الشمس ، فاذا بها امام ظل ظليل وجنة نعيم فلماذا لا تأوي اليها ..؟

كلا ! ان الماء لكدر وان المعـين لآس وان الطعام لوخم وان المكان لموبوء .

نفضتها عني ورحت اعدو كمن اصيب بمس وكنت كالمظلوم المأسور الذي فر من ظلم آسره كلما جرى بضع خطوات التفت وراءه ليطمئن . ورأيتها في آخر نظرة القيتها ورائي شبحاً اغبر في الظلام الداكن .

على شاطئك ايها النيل كان اول وآخر لقاء وتحت جنحك ايها الليل كان آخر فراق .

هذه قصتي معها ايها الصديق العاتب . فاذا ما قالت لك انها قد اقامت هيكلا بين جوانحها وضلوعها تخليداً لهذه الذكرى ، وان قلبها يتعبد في ذلك الهيكل ويتحنث ، فلا تصدق قليل منهن الصدوق ، وقل لها ايها الصديق العاتب : ان الزنبقة قد جفت وذبلت نضارتها وحال لونها وتلاشت رائحتها وسقطت اوراقها وذرتها الرياح ، فلتبحث عن زنبقة انضر وابهى وامتـع واحلى ، وقل لها ان المعين الذي همت ان تشرب منه قد جف ولم يبق منه الا اخدود صغير فيه ماء راكد ، فلتبحث عن عين ثرة جارية غيره ، فهل غاضت العيون بمائها واندثرت الحدائق بورودها وزهرها .

حسن حمام

من رواد الشعر الحر الاوائل

الشاعر وولت وتمان

بقلم : صلاح الدين موسى

اشتهر وولت وتمان ذو اللحية الكثة الذي كتب مقطوعته الخالدة « اوراق النبات » بلقب شاعر الدمقراطية ولو اريد عمل صورة زيتية لتخليده فيجب ان لا تعمل له على قماش عادي بل يجب ان تملأ الحيطان بالمناظر الباهرة التي خلدها بشعره الرفيع ، تلك المناظر التي تعبر اصدق تعبير عن نواحي الحياة اذ تصفه وصفاً دقيقاً المعاقل وحانات الجمة المظلمة والمدن المكتظة والعربات المزدحمة والزوارق وجبهات القتال والمستشفيات كما تعطي صورة صادقة عن أنهار المنطقة وبحيراتها وجبالها ومستنقعاتها وجراراتها وحقولها الهادئة وأحراشها ، كانت هذه المناظر كلها مادة خصبة ينهل منها وتمان لاشعاره واناشيده ليمدح بلاده والحب الاخوي الذي افنى حياته في التعبير عنه وتصويره .

وقد عاش وتمان طوال القرن التاسع عشر تقريبا وتأمل في حالة بلاده التي مرت عليها حوادث تدمي القلوب وكانت حينذاك كالجرادة الكبيرة التي تجاهد لتمزق جلدها – اذ كانت متفشية فيها العقائد البالية والتعصب الديني والشعوذة والرق وكان العوز والكد هما الحق الطبيعي المخلوقات البشرية .

ونصب (وتمان) نفسه ناطقاً بأحاسيس الانسان العادي الذي كان يرى فيه كل جمال وكل قيمة ولكن هذا الانسان لم يكن قد أصبح المثل الأعلى للأدب الرفيع ولا كانت معانيه الجزله القوية الجريئة لمستسيغها عامة الشعب في عصره لانه قال عن شعره بأنه شعر الجسد والروح حتى ان انصاره والنقاد والكتاب الذين عرفوه حق المعرفة يتريثون في قبول مؤلفاته قبولاً حسناً في حين كانوا يقرون بعظمة شخصيته ومقدرته الباهرة .

ولد وتمان في عام ١٨١٩ وكان ثاني اولاد أبيه التسعة وكان ابوه مزارعاً في لونغ آيلاند في نيويورك اذ كان جد اسرتهم قد هاجر من اوربا الى هذه المنطقة في عام ١٦٦٠ وكانت امه من اصل هولندي رحلت من مدينتها الى الحقول المجاورة لها فأذكت النشاط في سكان محيطها وكانت الاسرة تعتنق احد المذاهب الدينية التي تنفذ اللطف مبدأ لها فكان اثر هذا المبدأ عميقاً في نفس (ولت) .

وقد نعت (ولت) اباه بأقبح النعوت فوصفه بالمنحط والظالم والمنطوي على نفسه كما قال عن اصغر اخوانه وأكبرهم بأنهما ارذال . وكانت احدى شقيقاته مصابة بالتهيج العصبي كما كان يحب امه وجد لية لامه حتى العبادة . . وفي سن الحادية عشرة غادر (وولت) المدرسة ليعمل كآذن في مدينة بروكلن وبعد سنة تمرن في إحدى الجرائد والمطابع ومنذ ذلك الحين غادر منزله ، ولما بلغ الخامسة عشرة جرت ترقيته من عامل المطبعة الى عامل اصف الحروف وحوالي العشرين اصبح مراسلا ومحرراً ولهذا يعتبر وكأنه قد علم نفسه بنفسه وكان الوحيد بين اعضاء اسرته الذين كانوا يقرؤون لمجرد القراءة فكان يقرأ كل شيء واي شيء يقع تحت يديه فكان عقله يأخذ ماهو بحاجة اليه دون ان يطرأ عليه اي تبديل . . .

وبقي (وتمان) طوال حياته بدون زواج وفي ذلك يقول احد الذين كتبوا سيرة حياته عن كثب : ان حنوه لامه وشعوره المتدفق نحوها كان سبباً في عزوفه عن الحياة الزوجية وكانت هناك نساء موهوبات اعجبن به تقديراً لعبقريته كما حاز باعجاب المئات من الجنود الذين قام بتمريضهم لما يتمتع به من حنو النفس ورقة القلب .

وكان في النصف الاول من حياته صحفيا نشيطاً كأي شاب آخر في سنه وكان متحرراً للغاية في كتاباته حتى طردته كثير من الصحف لرفضه اجراء تبديلات على وجهات نظره واعتنق السياسة فدعا لمناصرة الحزب الدمقراطي محمساً الجماهير بكلماته النارية وهكذا كان يبرهن في كل فرصة عن حيويته متدفقة وشباب نشيط . .

وعمل الكبت في نفسه بصورة بطيئة طوال هذه السنوات حتى انفجر فجأة عام ١٨٥٥ عندما كان في السادسة والثلاثين اذ اصدر الطبعة الاولى من كتابه الرائع (أوراق النبات) .

ويصف (وتمان) بنفسه الاقبال الذي لاقاه كتابه فيقول :

يعتبر الكتاب صورة ناطقة عن حياتي في بروكلن ونيويورك وقد استقبلته الملايين من القراء لمدة ١٥ عاماً بلهفة ورغبة زائدتين لم يسبق لها مثيل . . ،

وقد تضمن هذا الكتاب نظرته للحياة والانسان وقد طبع النسخة الاولى منه بنفسه بعدان قام بوضع تصميم لها أما الطبعة الثانية فقد تضمنت اثنتين وثلاثين قصيدة شعرية ومنذ ذلك الحين جرى (وتمان) على سنة اضافة قصائده الجديدة للقديمة ونشرهما معاً بطبعات جديدة تحت اسم « اوراق النبات » ايضاً ولم يأت عام ١٨٦٠ حتى كانت الطبعة الجديدة تضم عام ١٨٩٢ اي في سنة وفاته .

وقد حوت هذه الطبعة على اربع وثلاث وعشرين قصيدة وبالرغم من التباين الشاسع بين الطبعة الاولى والاخيرة فقد ظل اسمها (اوراق النبات) وقد قال (وتمان) بأن من يلمسها يكون قد لمس رجلاً .

عالياً في السماء كان هناك عش

هفت روحي اليه وجلست القرفصاء فيه تتأمل فرأت الشمس ودورتها ورأت الشموس وأنظمتها . . .

ولا تقل ورقة النبات في شيء عنها . . .

والغريز يزين مجالس السماء . . .

اني شاعر المساواة . . .

وكان من اثر الطبعة الاولى لأشعار وتمان ان اهتزت لها مشاعر قرائها وارتعدت فرائصهم منها ، ويتفق الكثيرون ممن قرؤوها مع الشاعر الانكليزي (ولم هوويت) الذي قال عنها : انها مجموعة غريبة من شتى القصائد التي تستهوينا . . .

ومن الكتاب المعاصرين الذين قرظوا كتاب (وتمان) بعد وفاته رالف ووالده امرسون ، وهنري دافيد ثورد ، وقد قال الاول فيه انه قطعة غير عادية من الحكمة والمرح لم يسبق لامة ان ساهمت بمثلها وقال الآخر فيه : انه بالرغم من فظاظته وكونه في بعض الاحيان غير ذي اثر ، نضير

البقية على الصفحة « ٥١ »

الحب العظيم

بلا حزن وبقلبي الذي يرقص في النور
كفراشة سكرى بنسيم آذار ..
ودعت ايامي الماضية
المثقلة بالغربة والضجر والتشرد
وشرعت باب كوخي الصغير للحب والفرح العميق
القادمين من اعماق غابات الحنين في عيني حبيبتي ..
فما من مرة اغرقت عيني في عينيك ، يا جوليانا ..
الا وتفتحت براعم الازهار في قلبي
وغردت العنادل في حدائق روحي
واشرقت الشمس في سماء حياتي ..

* * *

الموسيقى العذبة التي تنساب من شفتيك الزهريتين
تطير باحلامي الى ماوراء الزرقة البعيدة
وترتفع بأشواقي الى المرتفعات والقمم الرمادية
السكرى باريج الله وعطر النجوم
وعيناك .. عيناك العسليتان الرائعتان ..
اللتان تسرحان كشراعين في بحيرة زرقاء
تسكبان في اعماق ذاتي خمراً الهياً ..
يمد الحياة امامي
دروبا مطرزة بالياسمين والاشعار ..

* * *

ترى ما ذا يصير ، ياحمامتي ..
ايتها السمراء العذبة كرحلة طويلة في بحر ..
ما ذا يصير لو زرعنا من احلامنا غابة صنوبر
وارتمينا نعيش كالعصافير ونحيا كعبير الارض ..

الياس الفاضل

طفل

سليمان عواد

* * *

هذا الطفل الصغير الذي يجن ساعة يراك
فيخفق قلبه بمليون جناح ..
هذا الطفل الذي يتلاشى طرباً وسعادة
امام شعاع نظراتك الحانية
فيمسي نغماً الهياً
يطارد طيور الهوى
ويصطاد فراشات العشق والفناء
هذا الطفل الصغير .. يعبدك ياسمر نار ..

* * *

اخاف ان تقتل هذا الطفل حرارة حبك
اخاف عليه الاحتراق المجنون
اخاف ان يصبح كتلة من رماد ..
مسكين .. هذا الطفل الصغير ياسمر نار
انه يحتمل من شمس هواك اللاهبة
اكثر مما تحتمل ايام الصيف
من حرارة الشمس ، في المناطق الاستوائية . .

* * *

أتعرفين هذا الطفل الذي ينظر اليك
كما ينظر البحار الى المنارة المتألقة
في ليلة مجنونة الظلام ..
وكما يرنو الوثني
الى مذبح النار في هيكله ..
انه قلبي ..
قلبي الذي ينتظر مجيء الربيع الابدي
مع عينيك الرائعتين .. ياسمر نار ..

الشوق الذي ابحر

قصة بقلم

خالد الشريقي

ثمة انسان ما لو كان يراقبه عن كثب ، لتأكد من انه ينتظر باصا ، ولكن لا ليصعد اليه كبقية الناس ، وقد مرت جميع باصات البلد .. حي الدين .. الاكراد .. القصاع .. ووقفت كعادتها امام العمود الحديدي الذي يحمل دائرة صغيرة ، دون ان يندفع الى اي واحد منها كما فعل كل من كان يقف الى جانبه في كل مرة

انه ينتظر باصا يحمـــل اليه شخصا ، شخصا معينا قال له البارحة :

— غدا الساعة الثالثة عند محطة الحجاز

ولو ان ذلك الانسان الذي لو راقبه عن كثب لتأكد من انه ينتظر باصا يحمل اليه شخصا ، لو انه استطاع قراءة افكاره وشعر بلهفة عينيه التي تأكل كل فتاة يبتسم الربيع في عينيها ، كأنما هي تبحث عن شيء يخاف ضياعه ، لو ان ذلك الانسان رأى رأسه الذي يمـدد نحو كل باص قادم يحمل لوحة صغيرة كتب عليها « الاكراد » ، اذن لجزم بانه لايقف الا من اجل فتاة قال لها البارحة عندما اراد ان ينسى شيئاً كبيراً اوحت به شفتاها :

— غداً الساعة الثالثة عند محطة الحجاز .

كان يتوقع ان يرى ابتسامة تنبع من عينيها قبل ان يقول لها هذه الجملة ، بل لقد تأكد من انه سيسمع صوتها الذي لا يصطدم بشيء وهو في طريقه الى حسه :

— لكننا سنلتقي صباحاً في الجامعة

— لا اعتقد . فلن اذهب اليها في الغد

— وهل هنالك مايشغلك ؟

— اجل . انني اهيء نفسي لان اعترف لك بشيء

— لم لايكون الان ؟

— لااستطيع . قلت لك بانني سأهيىء نفسي لذلك ..

— لقد اثرت في حب الفضول ..

— غداً الساعة الثالثة عند محطة الحجاز .

وتركها .. لم يستطع ان يطيل النظر الى الابتسامة التي كانت لاتزال تنبع من عينيها ، لم يقدر ان يضيف اية كلمة ، لقد شعر بانه سيسجد على ركبتيه ان مرت لحظة تعادل رف جفنين ، وبأن يده ستمتد في تلك اللحظة الى جيب بنطاله لتمزق ورقة خضراء ملفوفة بغلاف انيق مشبع برائحة البحر :

(.. حتى ابتسامة عينيك لازالت تعيش معي . كل شيء كما تركته ، لم يتبدل ، حتى الطاولة المستطيلة التي استيقظت رجلك من تحتها اول مرة لا تزال قائمة وسط هذا المعبد الصغير ..)

انه لا يدري حتى هذه اللحظة ، هل تعمد تلك الحركة؟

كان وقتها لا يفكر الا بانه قد استطاع ان يشرح لها جمـــلا انكليزية على طريقة استاذه ، وبانه اصبح رجلا لاتنقصه النبرة الحاسمة ، والثقة في كل ما يقوله ، حتى انه كان يشعر بلذة عميقة عندما كانت تصغي اليه بلهفة ، كأنها تقر من صميمها — وهذا ما استطاع ملاحظته — بان كل ما يقوله جدير بان يُسمع .

كانت تدفعه رغبة لان يحدث كل من يعرفه بانه يعلم فتاة ليست صغيرة ، كان يرمي الى ذلك في كل جملة يقولها ، فيمتلىء اعزازاً كأن يقول :

-- لقد شرحت البارحة هذه الفكرة لابنة الجيران .

او كأن يضع يده في جيبه ، ويبتسم ، ثم يقول لامباليا عندما يسأله احـدهم سؤالاً مدرسياً :

— سألتني ابنة الجيران مرة هذا السؤال ، وقـد اجبتها بكذا .. وكذا .

كانت تملأ خياله تلك الصورة التي يجلس فيها مع ابنة الجيران ، فهو بحاجة لأن تكون له واحدة يقدم لهـــا كل ما يعرف ، وواحدة لا يهمه من تكون ، كل ما يريده منهـا صوت ناعم وعينان جميلتان .

وكان مخلصاً في تعليمه لها ، فلم ينس امها التي كانت تقول له في كل مرة يأتي فيها الى البيت :

— انا اعرف اخلاقك يا ابني . انت احسن واحـــد في « الحارة »

ولولا ذلك ، لما طابت منه هو وحده دون غيره ان يعلم ابنتها ..

كان في تلك اللحظة يرى ابواباً كثيرة تنفتح امامه ، كانت من قبل مغلقة ، واحس بغريزة الفتى الذي استيقظ فجأة برغم صباه بأنه غـدا انساناً جديداً يحمل في رأسه اشياء لا يعرفها غيره ، وقد حاول ان يبدو طبيعياً عندما قعد امامها

على الطاولة المستطيلة اول مرة ، حاول ان يقلع الخجل الذي نبث بوجهه ، فلم تكن هذه اول مرة يراها ، لقد شاهدها كثيراً في بيته عندما كانت تأتي الى اخته ، وكان يسلم عليها ، انما لم يجلس معها ، لم يقترب منها كاقترابه الان ..

وتكلم ، في كل كلمة قالها كان يتذكر استاذه ، حتى ان اخاها الصغير ، الذي كان يجلس معهما على الطاولة قال له بعد انتهاء الدرس :

ـ انت بتشبه استاذنا كثير ..

فابتسم له ، وشعر ان هذا هو كل مايرجوه ، ولم يتمكن وقتها من رفع عينيه الى اخته التي وقفت قريبة منه ، ليقرأ الاثر الذي تركته جملة اخيها الصغير في عينيها ، كان شيء لم يدركه يربط عينيه بالارض

كان يعلم بانها تحترمه وتحدثه في كل مرة كأنها امام استاذ لها . وبالرغم من انه تمنى لو يزيح هذا الستار الكثيف ، لم يحاول ان يحتج على هذه الطريقة ، فقد اعجبته ، وملأت غروره ، انما كان ما يشده الى سعادته وينسيه غروره في بعض المرات أنه امام صبية لا تربطه بها رابطة القربى ، بامكانه ان يحبها في يوم ما بطريقة تختلف عن حبه لاخته ، وبأنه يجوز له ان يفكر امامها بأشياء لا يفكر فيها امام اخته ..

ولا يدري حتى هذه اللحظة هل تعمد تلك الحركة ؟ كان وقتها لا يفكر الا بانه قد استطاع ان يشرح لها جملاً انكليزية على طريقة استاذه ، وبانه اصبح رجلاً لا تنقصه النبرة الحاسمة ، والثقة في كل ما يقوله : وكان كعادته كثيرة الحركة ، يغوص حيناً تحت الطاولة حتى لايكاد يظهر منه غير رأسه ، ويعتدل حيناً اخر بجلسته ، حتى ليخيل لمن يشاهده من بعيد بانه واقف يوشك ان يمشي .

وغاص مرة في مقعده عندما استعصى عليه شرح احدى الجمل ، حتى التصقت رجله برجل الطاولة ، فضغط عليها بشدة كأنما يريدها ان تشاركه في تفكيره ، وحاول ان يتابع الدرس ، انما تزحلقت الكلمات من شفتيه ، ويرقص زران صغيران اسودان في عينيه ، فقد شعر بأن رجل الطاولة تهتز ، وبان ابتسامة ضائعة تتأرجح في عينيها ، وركضت انظاره الى اخيها الذي يتلهى برسم حمار على ورقة بيده ، وتأكد من انه لم يلحظ اي شيء

لم تمانع اذن ؟ لم تحاول ان تبعدها عن رجله ، ما أشد غباؤه ، وربما كانت تنتظر منه هذه الحركة منذ اول درس ، بل وربما لم تطلب من أمها ان يعلمها الا لانها كانت تحلم بمثل هذه الحركة ، ولانها تريد ان تعرف اشياء لايستطيع من في بيتها ان يمنحها اياها ، وتأكد بأنها لاتجلس امامه لتفهم جملاً انكليزية بليده ..

اجل ، ما اشد غباؤه ، بل ما أضيع تلك الساعات التي صرفها في ثرثرة كان يعتقد بانها تملأ بها رأسها الصغير .

كانت عيناها مغروزتين في دفترها عندما ركضت في رأسه كل هذه الافكار ، ووجهها لازال أحمر ، وابتسامتها الضائعة التي ولدت في عينيها قبل قليل لم تمت ، فتنحنح ، وضغط برجله ، وقال لها بحركة تمثيلية .

ـ اكتبي الحل في دفترك .

واتسعت ابتسامتها الضائعة قليلاً ، كأنها استطاعت ان تفهم كل شيء ، وبالرغم من ان هنالك لم يكن اي تمرين ، فقد تأكد اخوها الصغير عندما نظر اليها بأنه لايعرف ان يقرأ الكلمات الانكليزية التي تكتبها بيد مضطربة ، والتي خيل اليه بأنها لاتصطف بانتظام على السطور كما كان يراها من قبل .

وعندما كانت رجله توشوش رجلها ، كان اخوها الصغير يحاول ان يفتح فم الحمار الذي كان قد أغلقه

من يومها تغيرت طريقته في الشرح ، وتغيرت طريقتها في الاصغاء ، فلم يعد استاذاً ، ولم يعد تلميذه ، ولم تعد يتسلل في الليل عبر الحديقة الى غرفتها التي تقعد على جبين السلم الحجري ليكتب لها جملاً انكليزية لا يعرف اخوها الصغير ان يقرأها.

* * *

اعتقد قبل ان يصل اليه باص الاكراد بان الرأس الممدود الذي تدور فيه لؤلؤتان صغيرتان هو لها ، كانت تنظر اليه ، تراها استطاعت ان ترى فيه شيئاً غير طبيعي ، ام انها حسبته ينتظرها ؟ مايدريه ان يكون هنالك انسان قال لها البارحة :

ـ غداً الساعة الثالثة عند محطة الحجاز .

وبحثت نظراته عن هذا الانسان ، فلم يجد شوقاً يطل عليه من عيون كل من رأى . . . وكانت الفتاة تسير كأية فتاة عادية .

لازالت هنالك ربع ساعة ، لم جاء مبكراً ؟ كان بامكانه ان يعمل اي شيء غير انتظارها قبل الموعد ، فما من شيء اصعب على الانسان من الانتظار ، وانما ما من شيء يعادل الفرحة التي تزهر في نفس هذا الانسان عندما يرى من ينتظر .

كان يعتقد بانها ستسرع اليه قبل الموعد بعدما قال لها :
ـ انني اهيىء نفسي لان اعترف لك بشيء .
شيء .. ربما كان شيئاً عاديا بالنسبة لانسان آخر قد يفسره على الف وجه لن يرضى هو به .. اما بالنسبة اليه ..
وضعط على قلبه بكل خلية في صدره ، واحس بثقل يجثم في داخله ، وتمنى لو انها تأتي اليه في هذه اللحظة ليقول لها كل شيء ..

ستقول له اول ماتصل اليه ، بلهفة انسان رأى النور فجأة بعد ظلام طويل .
ـ لم انم طوال الليل .. كنت افكر بما ستعترف لي به .
فيقول لها :
ـ ستعرفين كل شيء بعد قليل . . سنذهب الى طريق بيروت فبامكاننا ان نتحدث بهدوء هناك
ويمسكها من يدها ، ويسير بها مجتازاً « جسر فكتوريا » ويزايله اضطرابه بعد قليل فيقول :
ـ اسمعيني قليلاً ، انا احبك ، اليس كذلك ؟
فتبتسم وربما تندهش وتقول له :
ـ اجل ، فلم يعد يخفي الواحد منا هذا الحب منذ اكثر من شهر ، ولكن هل هناك شيء آخر ؟
ـ اجل ..
ثم يشد ثقته الى نفسه قبل ان تنشق امامه هوة من الصمت لن يستطيع اجتيازها :
ـ أنا لا ازال احب فتاة تعيش بقرب البحر . . .
وستتسع عيناها ، وربما تضربه ، او تهرب منه ، بل ربما تصيح في وجهه ، وتتهمه بالخداع ، وبأنه سافل ومنحط ودنيء ، لكنه سيقول لها رغم اي شيء تفعله في تلك اللحظة : ـ لكنني احبك انت ايضاً . وان استطاعت ان تهدأ قليلاً .. وان حاولت ان تفهم شيئاً عن هذا السر ، فستقول له :
ـ كيف احببتني اذن ما دمت تحب فتاة اخرى تنتظرك قرب البحر ؟
ـ اعتقدت بأنني قد نسيتها
ـ لن أؤمن بهذه الخديعة ..
ـ أنا لا اكذب عليك .. لقد عشت في هذا النسيان حتى صباح البارحة عندما وصلتني رسالة منها .. لقد شعرت وقتها بأنني اكاد اختنق .. يجب ان تفهميني ..
ترى هل ستفهمه ؟ هل ستقبل بهذا الواقع ؟ انسان يحب فتاتين في وقت واحد .. من يصدقه ؟ من يقتنع منه بهذا الحب ؟
لا شك بأن من سيعلم ذلك يتهمه بأشياء كثيرة .. سيقول له بأنه شاذ ، ولص ، وغادر ، وربما مجنون ، لكنه مع كل هذا فهو يحب الاثنتين .. اي قلب يعيش بين جنبيه اذن ؟ ..
وفكر فيما لو انها قالت له :
ـ عليك ان تختار بيني او بينها ..
بما ذا سيجيبها .. من سيختار ؟ .. انه يرى في كل واحدة اشياء لا يراها في الاخرى . . وابتسم كمن نسي شيئاً لم يأسف له . . لو رأى اشياء جديدة في واحدة جديدة لا يراها في الاثنتين ، اتراه يحبها ويجمع بين الثلاثة ؟ وقبل ان تتسع ابتسامته لمعت في رأسه فكرة اخرى . . لو ان فتاة تجمع بين شخصيتيهما . اذن لكانت هي الوحيدة التي يحبها .. وتمنى من صميمه لو كان بامكان العلم الحديث دمج اثنين في واحد .
واراد ان يهرب ، وان لا ينتظرها ، وكاد ان يصمم بأن لا يعترف لها بشيء ؟ وحاول ان يغير وقفته .. واصطدمت يده التي امتدت الى جيب بنطاله بغلاف انيق مشبع برائحة البحر ..

(.. اعرف اخلاصك لي . لست بحاجة للبرهان ، فأنا على يقين من ان فتاة تعيش بقربك في الجامعة ، مهما كانت جميلة لن تستطيع ان تنتزعك مني ، لان ثقتي بك تعادل حبي لك ..).
هذه الكلمات نفسها قالتها له في المعبد الصغير الذي يقعد على جبين السلم الحجري ، عندما كان يودعها ليلة سفره .. كانت كالشمس ، ممددة على السرير ، بينما النوم يعمي عيون اهلها .. وكان الى جانبها يقضم شيئاً تبرعم في صدره .. كيف يستطيع الابتعاد عنها . كيف بامكان عينيه ان لا تريا هذا الياسمين الذي يزحف على جسمها ؟ . كانت تقول له :
ـ انا لا أومن بمقدمات الحب ..
فكان يجيبها :
ـ دعيها . . انها للحالمين
فتخفض حاجبيها ، وترفع نافورة من الحليب كانت شاطئاً ليده :
ـ ومن هم الحالمون ؟
ـ الذين يعيشون ضمن قواقع ، فيحبون الطبيعة ، ويناجون القمر ، ويدفنون رغبة تمنوا تحقيقها ..
ـ انا اكره هؤلاء الحالمين .. هل هم مثل اهلي يعتبرون الحب جريمة ؟

ــ ربما الاباء منهم فقط !!.

ــ لا يهم .. يكفي اننا نحن لا نؤمن بهذه الخرافات ..

ثم ترفع النافورة الثانية التي كانت تقبل الارض ، فتلتقي بالاخرى ، ولا تلبث النافورتان بعد رقصة قصيرة حتى ترجعا الى مكانيهما على السريرا، فتدير رأسها اليه ، وتضيف :

ــ اعتقد بان الحب هو فرحة جسدين .. ألا تشاركني هذا الرأي ؟

ــ ألم اقل لك بأن من يعتقد غير هذا هو من الحالمين ..

ــ الحالمون .. ؟ .. انني اشفق عليهم لانهم ينفقون ايامهم بالمناجاة والتأمل ، كما كان شأننا في ايامنا الاولى . ألا ينفق هؤلاء الحالمون ايامهم بالمناجاة والتأمل ..؟..

ــ اجــــل .. وهم فوق ذلك ينفرون من المجتمع .. ويستشعرون لذة في العذاب .

فتتململ .. وتزيح شعرها عن صدرها :

ــ اوه .. أكاد اضحك عليهم .. كيف يسمحون لانفسهم بهذا التفكير؟ انهم مساكين يضيعون عمرهم في الاوهام. ولكن قل لي .. بما ذا نسمى نحن ؟

ــ بالواقعيين ..

ــ الواقعيون ؟ .. لا بأس .. كلمة جميلة .. لقد سمعت بها في غير مجال الحب .

ــ انها فلسفة الحقيقة ، نراها في كل شيء نجربه . نلمسه .. في الحب ، والشعر ، والقصــــة ، والرسم ، والموسيقى .

ــ بل اننا نراها في الحب اجمـــــل من اي شيء آخر .

ثم تستلقي على صدرها كأنها تريد ان تغيب في الفراش :

ــ اعرف اخلاصك لي ، لست بحاجـة للبرهان ، فانا على يقين بان فتاة ستعيش بقربك في الجامعة مهما كانت جميلة ، لن تستطيع ان تنتزعك مني ، لان ثقتي بك تعادل حبي لك .

ترى هل انتزعته منها ؟ .

كان شيء من الاحترام يربطه بهـا ، شيء لم يشعر به امام اية واحدة اخرى ، وكانت هادئة متزنة ، تخجل ان تطيل النظر الى عيني احد ، وكان يعلم بانها تتهرب بلباقة من كل زميل يحاول ان يسير الى جانبها ، حتى وان كان ذلك في حديقـــــة الجامعة الكبيرة ، دون ان تحاول التهرب منه .

قالت له مرة :

ــ لا شيء اجمل من انسان يفهم الآخر بروحه .

فابتسم :

ــ انما لا يوجد هذا الانسان في ايامنا هذه ، اعتقد بانه قد مات قبل ان تخلق .

لا .. لم يمت ، لا بد انه يختبىء في زاوية ميته .

وتضاحك .. شعر بأنه يضحك من صميمه .. ورأى الفتاة التي تنتظره قرب البحر تضحك ايضاً ، انمـــا ما ابث ان شعر بحرج عندما يبست نظراتهـــا على وجهه ، فحاول ان يبدو طبيعياً ، وقال :

ــ هل تعنين بذلك « الرومانتيكيون » ؟

ــ انا لا اومن باتجاه معــــين ، انما هنالك الاحساس .. التأمل .. الطبيعة .

ــ لكنها اشياء تبعد عن الحقيقة .

ــ بل ان الحقيقة تكمن فيها وان انكرها البعض .

ــ ألا يعذبون انفسهم ؟

ــ لا .. فهم يعيشون على الامل ، ويشعرون بـلذة في الانتظار ، انهم يغذون ارواحهم بالاحساس ، بالحديث الصامت بالعاطفة الرفيعـة التي تغلي في دمائهم دون ان يتدهوروا الى الحضيض .. انهم يقتربون من الله كلما اقتربوا من انفسهم .. كان يصغي اليها بكل احساسه ، فقد رأى نفسه فجأة امام نهـــــر حارف من المبادىء ، حتى لقد كاد يشعر بأنه جاهل وضعيف ، وبأن شيئاً ما يحتضر في اعماقه ، وبأنه يخاف ان يتكلم ، ومع ذلك فقد قال لها كأنما يحاول ان يسترد ثقته :

ــ اعتقد بانهم انعزاليون .

ــ لم يصبحوا انعزاليين الا لأن المادة والأنانيـة طغتا على مصالح المجتمع .

ولا يدري كيف تجرأ وقال :

ــ وهل ينكرون الحب ؟

ــ من قال لك ذلك ؟ انهم لا يتغذون الا بالحب الذي يتصل بالقلب ويستمد هديه منـه ، بل انهم لا يتكلمون الا بلغة الارواح ، وحديثهم لا ينبع الا من صدق العاطفة ، ومن التجاوب الصامت الذي لا يفهمه الا من يفهم الله .

كانت تتكلم بحماس ، بايمان قفز امامـه فجأة ، وكان يرى فيها مخلوقة جديدة لم يعرفها من قبل ، وتمنى لو يسألها أين تعلمت كل هذا .. انما ظل صامتاً ، لا يعرف كيف يزيـــح الجبل الذي قعد على شفتيه ، وتساءل . اين كان قبل ان يعرفها .. كيف كان يعيش .. وركضت جمل كثيرة في صهريج سمعه واحس بتـــداخل غريب في الاصوات ، كأنما الف انسان

يصيح في اذنيه :

ــ انا اكره هؤلاء الحالمين .

ــ انهم يعيشون على الامل .. يغذون ارواحهم .. بالاحساس .. يقتربون من الله .

ــ اعتقد بان الحب هو فرحة جسدين .

ــ بماذا نسمى نحن ؟ .

ولم ينقذه من هذه الدوامة الا هربه منها .

اية فتاة هذه ؟ . لقد استيقظ على اشياء جديدة تكاد تبدل كل مفاهيمه ، اشياء لم يعتقد انه سيسمع بها ، كل كلمة قالتها له حفرت في معرفته زادته ايمانا بالحياة بنفسه .. أتراه كان واهماً عندما قالت له التي تنتظره قرب البحر :

ــ انا اشفق عليهم لانهم ينفقون ايامهم بالمناجاة والتأمل .

ما اشد غباؤها اذن ، انها لا تعرف بان هؤلاء الحالمين يتحدثون بلغة الارواح ، ويقتربون من الله ، بل ربما يستطيعون رؤيته في بعض المرات .

كان في كل مرة يراها يستمع الى صوتها الذي لا يصطدم بشيء وهو في طريقه الى حسه ، حتى انه لم يعد يخاف ان يطيل النظر الى عينيها ، كان يتأمل حدود وجهها الدقيق ، شفتيها الرقيقتين ، شعرها الكستنائي ، كان في كل مرة يتطلع اليها يكتشف اشياء جديدة لم يرها من قبل ، كانت تحدثه عن نفسها عن امها ،عن ابيها ، عن اخيها الصغير ، كانسان له كل الثقة بنفسه .

سألها مرة :

ــ ماذا يقول احد والديك اذا سمع بانني اوصلك كل يوم الى منعطف بيتك ؟ ..

اجابته مبتسمة

ــ اخبر امي قريب لي رآني عدة مرات اسير الى جانبك فأجابته بان ابنتها تعرف مصلحتها ، وبامكانها ان تقرر مصيرها بنفسها ..

وشعر في تلك اللحظة بهوة عميقة يتردى فيها ، وبانه يكاد يضيع ... وبانه لايستطيع الابتعاد عنها .. وبانها تملأ كل افكاره

وحاول ان يهرب .. هل احبها اذن ؟ .. وتلك ، هل يستطيع ان ينساها ؟

ولكن لماذا يضلل نفسه ؟ ألم يشعر يوم استلقت يده على يدها صدفة بانهار من الدماء تطوف في وجهه وبان شيئاً مايطوق صدره ؟ الم ترتجف هي ايضا فتسحب يدها بسرعة كأنها قد اساءت الى نفسها .. الم تخبره بانها تشعر بنشوة غريبة عندما تسير الى جانبه ، وبأنها قد بدأت تكتب مذكراتها ، وبأنها ترتاح اليه ، وتستطيع ان تحدث امها عنه ان ارادت .. ؟

سألها منذ شهر بعد حديث طويل عن حبيبين يعرف قصتها كل من في الجامعة :

ــ هل عرفت هذا النوع من الحب ؟

فارتعشت ، وسمرت نظراتها بعينيه كأنها لم تتوقع ان يسألها هذا السؤال ، وشعر بانه قد اساء اليها وكاد ان يتراجع ، ويعتذر منها لولا ان قالت وهي تضم كتابا الى صدرها :

ــ اخاف ان اعرفه في وقت قريب .

وادرك بحدسه الذي شحذته افكارها بانه يدنو من نافذة تكاد ان تغلق في وجهه :

وهل استطيع ان اعجل هذا الوقت ؟

فاطرقت ، وحاولت ان تتصنع ابتسامة :

ــ هل تثق بما تقول ؟

ــ اريد ان اسألك انا هذا السؤال

فرفعت اليه عينيها ، لاول مرة يرى فيها امرأة تحاول ان لاتخجل :

ــ احسب انني احلم ..

ــ بل احسب انك من « الرومانتيكيين » ..

ومنذ ذلك اليوم لم يعد يفكر بالكتابة الى التي تنتظره

★ ★ ★

(لا اقول بانك قد نسيتني لانك لم تكتب الي منذ اكثر من شهر ، اعرف اخلاصك لي ، لست بحاجة للبرهان ، فأنا على يقين من ان فتاة تعيش بقربك في الجامعة مهما كانت جميلة ، لن تستطيع ان تنتزعك مني ، لان ثقتي بك تعادل حبي لك ..)

صباح البارحة كان يشعر بانقباض شديد ، كان يدرك وهو يقرأ كلماتها تلك التي وصلته قبل دقائق مشبعة برائحة البحر بانه لم يستطع نسيانها ، وبان دقائق الماضي قد عادت بكل حنينها تنقر نافذة قلبه ، وبانه يقتل نفسه ، ويعذب حيواناً جائعاً يجثم في صدره ، كان يحس بان شيئاً ما يمنع عنه الهواء يضطره لان يمسك عليه بيديه ، ويعتصره حتى يذوب ، كانت الف خلية نحل تطن في رأسه ، وكثير من الديدان الصغير ينغل دون ان يهدأ في كل خلية من صدره ..

وتمنى لو ان انساناً ما لا يعرفه يأتي اليه في تلك اللحظة ليضربه ، ليدوسه ، ليأكل من قلبه نتفا حمراء دبقه ، ليزرع في كل شبر من جسمه اصبعا ، لينزع عنه رأسه ويدحرجه بين قدميه .. ليعمل اشياء كثيرة لم يفكر فيها من قبل ..

وانطوى على نفسه يضغط . ويضغط ، وحاول ان يستريح على مقعد جانبي في حديقة الجامعه الكبيره ..

ستأتي اليه بعد قليل كعادتها كل يوم ، ماذا يقول لها ؟ هل يستطيع ان يطيل النظر الى عينيها وفي جيبه ورقة خضراء ملفوفة بغلاف انيق مشبع برائحة البحر ؟ ، هل يقدم لها هذه الورقة ويعترف لها بكل شيء .. يقول لها بان فتاة تنتظره قرب البحر .. تراها تهرب منه اذا اعترف لها ؟.. اي انسان يغدو اذا هربت ؟..

وضغط على نفسه من جديد ، ألم يكن بمقدوره ان يهرب من طريقها ، ويبقى مخلصاً لحبه الاول ، كما كان شأنه قبل ان يتعرف عليها ؟..

ولكن لم يفعل . ألحاجته الى سماع صوتها الذي لا يصطدم بشيء وهو في طريقه الى حبه، امتراه كان يحاول ان يكشف مجاهل نفسها الغامضة ، وان يقف على سر هذا التقديس الذي يسبح على وجهها ؟ .

كان يشعر بقوة تشده اليها ، قوة لم يعرفها من قبل ، وقد تساءل كثيراً عما اذا كان يستطيع ان يجد في عيني واحدة اخرى البراءة التي يراها في عينيها .. وجزم بانه لن يجد هذه الفتاة ، وان واحدة اخرى غيرها لم تسمع بكل القيم التي تعلمها له كل يوم . وتلمس تفاهته عندما احب الذي تنتظره قرب البحر

ولا ينكر بانه لم يكتب لها منذ اكثر من شهر ، كان يعتقد بانه استطاع نسيانها ، وبانه لا يعيش الا من اجل هذه وظل في اعتقاده حتى صباح البارحة ، عندما قرأ منها ورقة خضراء مشبعة برائحة البحر .

لقد شعر فجأة بان مجهول قد استيقظ في اعماقه ، وبانه لم يستطع نسيانها ، وبانه لا يزال يحبها ، وبانه يحب هذه ايضاً ، وصمم ان يعترف لها بكل شيء .

قبل ان تصل اليه مد يده الى جيب بنطاله ، وعندما وصلت ، اخرجها تحمل الفراغ ، وبقي الغلاف الانيق يملأ زاوية جيبه .

كان يلمح في عينيها نظرات تحمل الف سؤال ، وتأكد بانها قد رات اضطرابه ، والا لما بقيت ساكنة تحدق فيه ببلاهة ، واراد ان يهرج وان ينسى شيئاً كبيراً اوحت به شفتاها ، فحاول ان يبدو طبيعياً عندما رأى ابتسامة تنبع من عينيها ، وقال :

ــ غداً الساعة الثالثة عند محطة الحجاز

وتوقع ان يسمع صوتها الذي لا يصطدم بشيء وهو في طريقه الى حبه

ــ لكننا سنلتقي صباحاً في الجامعة

ــ لا اعتقد فلن اذهب اليها في الغد

ــ وهل هنالك ما يشغلك ..؟

وشعر في تلك اللحظة بانه لن يستطيع سماعها ، فأجاب :

ــ اجل .. انني اهيىء نفسي لان اعترف لك بشيء

وسمرت عينيها بعينيه :

ــ لم لا يكون الان ؟

ــ لا استطيع . قلت لك بأنني سأهيىء نفسي لذلك .

ــ لقد آثرت في حب الفضول

ــ غداً الساعة الثالثة عند محطة الحجاز

وتركها ، لم يستطع ان يطيل النظر الى الابتسامة التي كانت لاتزال تنبع من عينيها ، لم يقدر ان يضيف اية كلمة ، لقد شعر بأنه سيجسد على ركبتيه ان مرت لحظة تعادل رف جفنين ، وبان يده ستمتد في تلك اللحظة الى جيب بنطاله لتمزق ورقة خضراء ملفوفة بغلاف انيق مشبع برائحة البحر .

* * *

ثمة انسان ما لو كان يراقبه عن كثب طيلة نصف ساعة ، لجزم بأنه ينتظر باصاً ، ولكن لا ليصعد اليه كبقية الناس ، بل لانه سيحمل اليه فتاة قال لها البارحة :

ــ غداً الساعة الثالثة عند محطة الحجاز

ولو ان ذلك الانسان الذي راقبه عن كثب لجزم بأنه ينتظر فتاة ، لو انه رأى القلق الذي يزحف ثقيلاً على وجهه ، اذن لأيقن بان الفتاة التي ينتظرها قد تأخرت .

لم تأخرت ؟ تراها درت بما يعتزم ان يقوله لها فصممت ان تهرب منه ، وهل كان فيما قاله لها البارحة شيء ينم عن اعترافه ؟

وزفر ، وأدار ظهره للباصات ، وتطلع الى المقهى المتخم بالناس ، الذي يتكوم خلفه ، واراد ان يتلهى باي شيء ،

البقية على الصفحة «٤٩»

رد على محمد حيدر

الى عصويص بن عكرمة العضروضي

٣ ع – ع٣

بقلم
علي بركات

الاستاذ محمد حيدر – نفعني الله بعلمه – واسع الاطلاع، عنده علم بكل شيء: في الشعر، في القصة، في الموسيقى وفي الرسم..

وهو الى ذلك، خفيف الدم، فكه مرح، يعرف متى يكون استعمال لفظة «طظ» يثير الابتسام.

وأنا عندما قرأت موضوعه – عرض حال رقم: ٥ – ضحكت مرة وسبحت الخالق مرتين.

والضحك كان بسبب...

والتسبيح كان لسبب...

وظني ان الاستاذ محمد حيدر ما قصد الى غير ذلك:

أن يحملنا على الضحك من «الشراطونية» تدخل الى موضوع النقد.

وان يدفعنا الى تسبيح الله – ونحن نسبحه دوماً – وقد أعطاه من لدنه «علماً» تفرد به من دون سائر المخلوقات.

ولكن!.. ورب انفعال يأتيك لغير السبب المقصود..

ولكن!.. ورب هزة شعورية تتملكك من «الهادف» وقد التوى به الطريق الى الهدف.

وهكذا كان...

«فالعضروضي» – وتباركت يا آلهي ما اطرب هذا النغم – أحب ان يسخر من الشعر الحديث «المتحرر من قواعد اللغة والقافية والموسيقى الشعرية واحياناً من الوزن والبحر»...

وأنا اتفق معه أن النقد الساخر هو واجب الاديب امام الانتاج الضحل، وهذا الواجب هو دوما مليء اي منتج بتركيز، وليس ابداً فراغاً وعدمية. فمع العدمية تنعدم القيم. ذات التفاعل الايجابي ويخرج الامر الى ان يكون نوعاً من اللهو والعبث.

ان مسؤولية الاديب النقادة لا تتبلور في مجال الفوضى، وانما في حدود ما يملكه الناقد من درجة الوعي لغايته المثالية التي لا يصح ابداً ان تكون اخلاقية مبهمة ترتكز على النية التي تناقش الكل عن طريق مناقشة الجزء، بل على العكس، هي غاية واقعية صحيحة، تسعى بمقدار كبير الى أن تحقق فكرة الجمالية في النوع عن طريق دراسة النوع بكامله او على الاقل في اكثر اجزائه.

وهي – اي الغاية – بهذا الوصف تخرج عن ان تكون وعياً منعزلاً داخل الفرد ذاته، اي متحررة من كل علاقة تصلها بتاريخ تطور البشر، وفاقدة للصلة التي تجمعها بالانسان الواقعي الصحيح، فيتصق من ذاتها ماتعتقده قذارة، والقذارة ليست الا وهم القابع على الرف يبعد بنفسه عن المشاركة فلا يتعمق مع الاحداث التطورية ولا يعمق شعوره بها. تماما كما فعل صاحبنا «العضروضي» الساخر بدون سبب او مبرر.

لقد احببت للكاتب ان ينأى بوعيه وغايته عن أن يكون «مهزلة بشرية»، فيض على قلمه ان تناله النكسة وقد واتته النكسة على خواء، فكتب وما احسب انه كتب قليلاً، وكنت حيال ما كتبه أحس ان الكاتب لا يتخذ طريقه في البحث والنقد معينة: انه يدور حول المسائل ليستبعدها، وحول الحلول ليبث فيها روح الشعوذة والدجل. وما كان بحاجة الى كل ذلك لو انه بنى موضوعه على اساس.

في اعتقادي انه كان يستطيع ان يجعل لموضوعه طابعاً غير طابع التهريج، الا ان الغاية – وبودي ان لا اتهمه بالانقياد – دفعته الى الخطأ.

فكان ان جعلنا نحس في موضوعه الفراغ والعدمية بسبب من أن النقد كان جملة لا تفصيلاً وبسبب من مقارنة غير جدية.

• • •

اما ان النقد كان جملة لا تفصيلاً، فواضح ان الكاتب قد اطلق حكمه على الشعر الحر «الهادف» دون استثناء، كأنما العملية هي بيع بالجملة وجزافاً، او كأنما هي احد المتاجر في «العم سام» التي تبيع كل شيء بعشر سنتات.

لا فرق!.. كل السلع متساوية في قيمتها وان اختلفت من حيث التفاوت في الاستعمال.

كذلك لا فرق!.. كل الشعر الحر «الهادف» من بضاعة واحدة: الفاظه واحدة ودوافعه واحدة: «ركيك سخيف. جمود في الخيال. اسفاف عجيب». كذلك لا فرق على هذا القياس – وليسمح لي سيدي الكاتب بهذا التجاوز – كل

الافراد من بضاعة واحدة : احساساتهم واحـــدة وتفكيرهم واحد ، واسفافهم واحد ، وهضمهم « للكبة والشاورمة » واحد ايضاً .

وقياساً على ذلك نستطيع القول التالي :

ان الشعر معلول لعـلة احساس

وبما ان الاحساس واحد كما سبق

اذن وتخريجاً على منطق ارسطو وتوافقاً مـــع الجدل الهيكلي : كل الانتاج الشعري واحد .

أليس هذا اسفافاً ؟ .. ما في ذلك ريب ، الا انه لا يعدل اسفاف الكاتب وهو يبتسم هازئاً ويحـاول ان يجعلنا نبتسم هازئين من كل الشعر الحر « الهادف » بدون استثناء وبدون ان يعطي الدليل الا نتفاً جمعهـــا من هنا ومن هناك بغاية وقصد سيئين .

نحن قد نبتسم مرة هازئين، الا اننا كثيراً ما نبتسم رضاء واعجابا . ففي الشعر الحر نجد الغث ونجد الثمين ، شأنه في ذلك شأن الشعر المقفى ، شعر الشعراء غير الهادفين . وهو الى ذلك ، سبيل هين لاظهار مشاعرنا الثورية في عهد الثورة ، ومشاعرنا الجمالية ايضاً بأسلوب قـد لا ينعم بكل موسيقى الشعر المقفى الا انه لا يخلو بحال من النغم ، فيسمو على النثر وينضاف الى الشعر بما له من سهولة الترديد والوقع .

فما يضرنا ان يكون لنا منه وسيلة تعبـير ؟ لا سيما وان الحياة الادبية لا تخصب بالاسلوب بقـــدر ما تخصب وتغنى بالفكرة واللوحة .

انا لا اماري ان في الشعر الحر ، قصائد لا يمكن هضمها بحال من الاحوال ، وقد تصعب قراءتها ، الا ان ذلك لا يبرر لي اطلاقاً الحـكم على فساد النوع بكامله وعـــدم صلاحه للحياة والبقاء .

والكاتب ــ وانا لا اطلب منـه المراعاة والمسايرة ــ في اطلاقه الحكم دون تقيد ، ما احب ان ينصف نفسه وما احب لنا ان ننصفه ايضــاً ولو انه احب ذلك واراده لابقى ــ وبسبب من سعيه للانسجام مع الواقع - على ما هو صالح للبقاء حقيقة وفعلا وهو الشيء الكثير .

وظني ان مرد ذلك يعود الى احد سببين :

اولهما ان يكون الكاتب من قراء الصدفة .

وثانيهما ان يكون من القراء فعلا الا ان ثمة تفكير خاص وانقيادي ملك عليه نفسه امام القوميـة المنسرحة في الشعر ، فخافها ومن ثم تمطى ليستجمع نشاطه « فعصلج » ويا للأسف .

كنت اتمنى لو ان الكاتب من قراء الصدفة الذين لا يعنيهم الا مايعرض لهم ، ومع ذلك ، ولعله في النفس ــ بودي ان لا اسميها الغرور ــ لايمتنعون عن اطلاق احكامهم كلية شاملة دون استثناء كأنما اوتوا العصمة في الرأي والقول . الا ان الكاتب ــ وقد جمعتني به ظروف ــ ليس من هذه الزمرة .

انه يتموضع مع الوجوديـة ، وقد عـــاشت على رقي البورجوازيـة ، اثر انهزام « الـــبرغسونية » امام ضربات « بوليتزر » ويشعر بالاحســاس الرهيب المؤرق « بلعنة العمل والنضال والتجديد » .

وهذا ازعج مافي الامر .

فلو ان محاولة تحطيم الشعر الحر كانت بسبب من نقص في الاطلاع لقلنا : هذا نقص يمكن تداركه .

الا انها ، وفي اعتقادي ، كانت بسبب تفش عميق لمدرسة « تؤكد ضرورة الاختيار وحتميته يتخلى تلامذتها عن الاختيار ويفرون عن الميدان » .

اولم يكن الهـدف الوحيد لسارتر هو ان « يضع جميـع النشاطات على صعيد واحد »

اولسنا نلمس ان غاية الكاتب هي في ان يجعل الشعر الحر كله على سوية واحدة غير مبال من بعد ، سواء اوجد بـــين الناس من انكر ومن آمن .

ان الكاتب ــ واظن اراد ان يحقق لنفسه العظمة ، تماماً بذات النهج الذي حدده كامو « تؤلف خمرة اللامعقول وخبز اللامبالاة عظمة الانسان » . وهل في اللامعقول واللامبـالاة سوى الفراغ والعدمية ؟

انا اثق ان الكاتب سيحتج على تهمة الفراغ والعدميـة ، ولكن أليس هو المؤكد بأن الشعر الحر « الهادف » ركيك مسف ، مبتذل ، جامد شاحب .. مع انه لاتلمس دربـــه بحس سليم لوجد مئات القصائد المؤتلفة .

ان بين يدي الكثير من الشعر الحر ، ولا بأس ان انقل بعضاً منه وابدأ بقصيـدة « الحبيب » للشاعرة السيدة عزيزة هارون .

بين الدروب عرفت دربك ياحبيبي
فتبسم الحزن الحنون بمهجتي وزهت ندوبي
بك ياحبيب اعيش ناعمة واهذأ بالخطوب

واذا خشيت من الغيوب غمرت بالنعمى غيوبي

* * *

بك ياحبيب أعيش كالاطفال في العمر النفير

الحب يرفعني الى جو الملائكة الطهور

ويرف في آهاتي النشوى بألحان السرور

ويظل طيفك في دجاي أشعة القمر المنير

ثم بأبيات من قصيـــدة « الماضي الذي لاينام » للشاعر خالد شريقي :

وأظل أذكر قريتي والاصدقاء

والشيخ يزرع صامتاً ، حتى المساء

والجارة العرجاء تحرسها السماء

تسقي ذروع الكرم لاتشكو عناء

* * *

والحي يغلي بالصفار

تواكبوا للتسلية

وشباب ضيعتنا مشوا ...

يتحادثون بذكر تلك الراعية

تلك التي هربت

وعافت قومها والماشية

حيث المدينة ، والنقود

* * *

وأظل اذكر بيتنا

في المنحنى . .

وبأننا ...

كنا صغاراً يوم ذاك

نلهوا ونركض ضاحكين

عبر المزارع والحقول

وأهام بستان الدوال

احسب ان هذا يكفي .

واحسب ان الكاتب ذواق للادب لولا الفرض . وقاتل الله الفرض .

واما ان كان النقد كان نتيجة لمقارنة غير جدية فواضح ان الكاتب احب ان يستغل القارىء ، وهذا دهاء ، فهو يعمد الى اضحاكه اولاً وهو بهذا العمل يضمن التغطية اللازمة لقصده .

فأي قارىء لايضحك للهزء التالي :

كادحون

حون .. حون .. حون

. . .

في اجترار

رار .. رار .. رار ..

وأي قارىء لا يرى ، بعد ذلك ، في القول « وشربت شاياً في الطريق » هزراً بتأثير الهزر الذي اضحكه ومن ثم يقول : « عفارم عضروطي .. لقد عضرطت الآخرين ؟

مع ان القول : « وشربت شاياً في الطريق » هو جزء من لوحة ، كان الاجدر بالكاتب ان يعرضها بكاملها ليشاركه القارىء في وجهة نظره .

لقد قلت ان المقارنة لم تكن جدية ، فعوضاً عن ان مقارنة انتاج الكاتب على ما استشهد به من انتاج غيره ، كانت غير سليمة بالنظر لانعدام المعنى في منظوم « جنابه » وتوفره بشكل قومي في منظوم غيره ، فان الكاتب لم يستشهد الا بالفث من الشعر الحر .

فاذا كان كل الشعر الحر من النوع الذي اورده فماذا نسمي الشعر التالي :

يا حبيبي

لا تسلني لما فصلت شوالي دون كم

لا تسلني

سل عن العلة أمي

حدثتني

ان للزنبق زندا

وبرغم الخفر الاحمر

للوردة خدا

ما سرقت النور من خدر الدجى

حتى انا احمي شبابي

هبة الشمس زراعي

. . .

أحسب ان الجواب ليس هناك ، في مكاوي الغيب ، انه في نفوسنا جميعاً ، ولكنه لا يسر الكاتب على كل حال **لأنه شعر**

ومع الشعر قد يطول الحديث ، وسنظل نتوق الى الحديث عن القصة ؛ ولكنه مجال على ضيق . فالى العدد القادم

علي بركات

تمثال فارغ

بقلم :
ابراهيم قدري

استيقظت مبكرة تنعم بمرح ونشاط لا عهد لها بهما من قبل. لقد بعثهما في جسمها الفتي الناضر نوم هادىء هنيء راودته احلام بديعة ناعمة. تثاءبت وتمطت بــدلال وسارت الى النافذة وازاحت الستائر تمتع الطرف بصبح ندي اطل على الدنيا بجو رطيب منعش تتلألأ بنور فجره ثريات الندى على الاعشاب والازاهير اقبلت نحو جهاز الراديو وادارت ازراره لينقل الى مسامعها نغماً حلواً هادئاً يزيد في ما هي فيه من بهجة لا تدري مبعثها . ومن حبور لا تعرف مأتاه واخذت تردد على شفتيها بعض الانغام وهي تصلح من وضع التمثال الصغير الذي يجثم فوق الراديو . ولكن ما لهذا التمثال الذي تراه في كل حين لم يحرك فيها من المشاعر ما حركه هذا الصباح .. انه يمثل (ابولون) (وبلفوين) بشبابه وقوته وجماله الذي اصبح اسطورة على مرّ الدهور بما يتمثل فيه من جمال الرجولة في سن الشباب . فتحت النافذة فداعب أنفها عبق شذى النسمات ينبعث من شجرة اللوز القريبة ومن أزهار نيسان وداعب اسماعها تغريد عصفور صغير بالقرب من نافذتها اتخذ من الشجرة المزهرة مسرحاً لشدوه وتراتيله ومغناه . وبينما هي تنقل الطرف بين هذه المباهج التي تضافرت جميعها تبعث في نفسها مرح الشباب وتحرك في خواطرها احلام العذارى لمحت على بعد فتى هو الآخر في ربيع شبابه تحاكي نضارته ذلك الصباح البهيج .. ومن غريب الصدف ان فيه الكثير من مميزات جمال ابولون ونضارته وروعة جسده . يجمعه بصاحب التمثال شبه كبير .. انه صورة حية كانت عالقة في مخيلتها قبل ان يحتويها فراشها الوثير .. ترى من هو هذا الابولون الجديد .. والى اية اسرة ينتمي .. وهل يمر في الايام التالية ام أنها مصادفة عابرة لن تتكرر .. سوف ترقب الغد . وترقب الايام التالية لتراه .

في اليوم التالي وقفت تطل على الطريق لعلها تظفر برؤيته بين عابري ذلك الشارع الانيق ها هو يمرّ في تلك الساعة التي مر بها أمس . اذن سوف يمر كل يوم. لا ريب انــه في طريقه الى عمله . ها هو قد احتواه منعطف آخر حجبه عن مرمى الانظار .. عجباً انها لم تكن تهتم بمروره قبل الآن ولم تكن تلقي الطرف على ذلك الشارع الا لماماً ذلك لانها كانت في الايام السابقة تغط في نومها حتى ساعة متأخرة من الصباح .. ظلت برهة ذاهلة تشرد افكارها بين جمال الصباح .. وجمال فارس الاحلام حتى نبهها من هواجسها صوت المربية العجوز تدعوها الى الحمام .. تغادر النافذة وهي ترقص وتغني فرحة مبتهجة تلج وتندس في المغطس تداعب ــ بحركات صبيانية ــ فقاقيع الصابون .

توالى ترقبها لمروره كل يوم وتوالى مروره بانتظام واصبح شغلها الشاغل ضبط عقارب الساعة على الوقت الذي يخطي فيه بقامته الممشوقة وصباه الجذاب .

بين نافذتها والطريق مسافة بعيده تفصلها حديقة متسعة فلا يمكن للفتاة ان تلفت اليها انظار الفتى الجميل قبل ان تسترعي انتباه السابلة وسكان المنازل المجاورة واصحاب الحوانيت المبعثرة حول البيوت . وليس لها من سبيل الى الاتصال به والتعرف اليه الا عن طريق المراسلة . وها هي المربية الامينة خير رسول وخير كاتم للاسرار . ولكن هل تقدم الفتاة على هذه المجازفة الجريئة؟ انها تتردد . وتتردد طويلاً . يدفعها القلب الى الاتصــال بمن استحوذ على افكارها .. ويبعدها العقل عن هذه الفكرة الصبيانية التي لا تخلو من مسئولية لا تحمد لها عقبى .. يتغلب نداء القلب البرعمي على همس العقل الفتي وتعزم الفتاة الوالهــة على المخاطرة .. وما المانع . ها هي القصص الحديثة الاباحية تنشر أمثال هذه المغامرات الجريئة . وها هي الافــلام ــ وخاصة العربية منها ــ تمجد مثل هــذه البطولات .. ما المانع لو قلدت ابطال قصص الكتاب الاباحيين وبطلات الافلام التحررية .. انها فترة تعارف ليس الا .. وقد يعقبها تفاهم ينتهي بها الى رباط مقدس رصين . تلك هي احلام العذارى في ربيع الحياة .. وماذا يضير . كلمة بسيطة تجعله يلتفت اليها في غدوه ورواحه ويفتح باباً فسيحاً لدرجات الارتقاء العاطفيه . فتتطور العلاقة البريئة من نظرة الى

ابتسامة تبعتها موعد فلقاء

لقد حمدت لنفسي هذا التفكير واخـذت تشرع في التنفيذ .. وتعد في مخيلتها موضوع رقعة صغيرة تضمنها كلمة موجزة ما امكن الايجاز لعله يهتم هو الآخر بالمواعيد ويتقابل الشطوان وبينما هي مسترسلة في احلامها تقبل امها نحو غرفتها وتحثها على ارتداء ملابسها لتذهب نيابة عنهـــا لزيارة واجبة وتعتذر عن تخلف امها .. ترتبك ثم تأخذ اهبتها لارتداء ملابسها استعداداً للخروج

برزت تخطر بقامتها الممشوقة وثوبها المتناسق الانيق وفيما هي تغلق وراءها باب المنزل حتى امتقع لونها وبدا عليها شيء من الاضطراب انها لمفاجأة سارة . ها هو فتى الاحلام قادم من مفترق الطريق الاخر .. لم تعد بحاجة الى المراسلة .. ابتسامة منها تكفي لان تطيح بمقاومته وتجعله هو الآخر يترقب مزيداً من الابتسامات .. ها هو قد وصل الى قربها ثم حاذاها ..وفجأة وبحركة تخلو من اللباقة غير اتجاهه وتبعها سائراً في أثرها ثم الح في متابعتها بشكل مزعج سمج حتى اذا ما خلا الطريق من السابلة اقترب منها وأخذ يغازلها بجرأة وبقحه لا تصدران عن شاب مهذب أصيل وبعبارات مبتزلة يمجها الذوق السليم .

ان اكره ما تكره فتاتنا هذا الصنف من الشبان المائعين الذين لايخجلون من القاء الكلام . ومطارحة الوجد والهيام والاعجاب على قارعة الطريق .

لقد امتقع لونها وبدا عليها شيء من الاضطراب ولكن لا من المفاجأة السارة بل من الحنق والغضب والاشمئزاز .. لقد هدم بيده ذلك البرج العامر الذي رفعته اليه وهشم التمثال المرمري الذي نحتته له في خيالها .. لقد اغناها عن البحث والاستقصاء عن منشئه واخلاقه وسلوكه واعطاها عن نفسه فكرة واضحة وعن عيب لا تمقت سواه من عيوب أمثاله من الشبان المتسكعين . وايقنت بأن زينة الشباب لا ترتكز فقط على ما يتمتع به من صبا وجمال .

لم تطق اصطباراً على كظم غيظها بل ارتدت على أعقابها وقفلت راجعة الى البيت وقد محت من مخيلتها صورة الفارس الجميل وانقلبت الى سحنة قرد ممسوخ مازال يلاحقها بمنتهى الصفاقة . وما ان ولجت المنزل حتى اطبقت الباب بشـدة في وجهه وسارت الى غرفتها وانتزعت تمثـال (ابولون دي بلفوين) عن الراديو والقته أرضاً وراحت تطأ بأقدامها ما تبقى من أجزائه المتناثرة . وبعد ان هــدأ بعض ماءها من اضطراب سحبت المربية من يدها لترافقها لاداء تلك الزيارة الواجبة وخرجت من الباب هذه المرة بتفكير جديد .

ابراهيم قدري

الشوق الذي ابحر

فاقترب من جدار المقهى الذي تتكىء عليه جرائد عده ، ولم يستطع ان يقرأ شيئاً ، كانت الاسطر ترقص امـــام عينيه ، وكان يشعر ان رجليه لاتقويان على حمله .

– اعتقد بأنني قد تأخرت عليك .

لم يصطدم بأي شيء هذا الصوت وهو في طريقه الى حسه واستدار الى الربيع الذي يرقص في عينيها ، ولم يقـل شيئاً ، فقد توقع ان يسمع شيئاً آخر :

– لا أزال افكر بما ستعترف لي به

– ستعرفين كل شيء بعد قليل ، سنذهب الى طريق بيروت فبامكاننا ان نتحدث بهدوء هناك وامسكها من يدها ، وسار بها مجتازاً « جسر فكتوريا » وزايله اضطرابه قليلا ، فقال :

– اسمعيني قليلا . انا احبك . اليس كذلك ؟

فاختلطت ابتسامتها بدهشة خائفـة ، وهزت له رأسها ، وارادت ان تفهم شيئاً آخر :

– اهذا كل مافي الامر ؟

واحس بفراغ بين مفاصله ، وهربت منـــه كل ثقة له في نفسه ، وخيل اليه بأنه سيرى شفتيها ترتعشان ، وعينيها تتسعان وستضربه ، وتهرب منه ، وتصيح في وجهه ، وتتهمه بالخداع وبانه سافل ومنحط ودنيء ، وخاف ان يفقدها ، وان لا يسمع صوتا لايصطدم بشيء وهو في طريقه الى حسه وخيل اليه في تلك اللحظة بانه لم يعد يتلمس اية ذكرى من حياته ، واحس انه قد استيقظ من جديد ، وان شعوراً - لايدركه – قد نما في نفسه انساه كل مايربطه بالحياة ، لم يشعر الا انه امام انسانة يحبها اكثر من اي شيء ، وانه لايستطيع الابتعاد عنها ،كانت ابتسامتها لاتزال تتسع في عينيها ، وكلمات قليلة لم تزل ترقص على شفتيها :

اهذا كل مافي الامر ؟ هذا هو اعترافك

– اجل ، فانني في هـذه اللحظة اشعر بانني لن استطيع الابتعاد عنك مهما حدث .

وعندما ضغطت بيدها على يده ، كانت اصابع يده الاخرى المدفونه في جيب بنطاله تعتصر غلافاً انيقاً مشبعا برائحة البحر وكان الصوت الذي يسمعه لايصطدم بشيء وهو في طريقـه الى حسه .

اللاذقية – خالد الشريقي

الينابيع التي تفجرت

قصة بقلم : عبد الله عبد

كان الوقت عصراً ، عندما اندفع ناجي من احد الازقة التي تكثر على جانبي شارع هنانو واعتلى عتبة منزل يرنو الى الرائحين والغادين . كان الشارع مزدحماً اكثر من اي وقت مضى

لم يكن يوم جمعة او احـــد ، وليس ثمة عيد حسبت له العجائز باصابعها ، فاستقبلته صنوف الحلوى حتى حلل المناسبات لم ينفض عنها الغبار . ورغم ذلك كان الاهلون يعبرون الشوارع برفقة بحارة سمر — حملتهم صباح اليوم سفن رصاصية اللون — خفافا كالسنونو ، لطافا كالفراش . ان روحاً سعيدة ترفرف فوق المدينة .

ترك ناجي عتبة الباب وزرع الرصيف جيئة وذهابا عدة مرات ، ثم رجع الى موضعه السابق من العتبة وعبر بحار ارض الشارع ، كان مسرعاً في خطوه ففكر ناجي « ترى اين يمضي؟ اهناك من ينتظره ؟ » وقفز الارض ، ثم عدا في حين ضغطت يده على شيء ما في جيبه .

ان ناجي طفل .. طفل في الثامنة او التاسعة من عمره . يملك بندقية ويقضي معظم اوقات فراغه في مطاردة الهوام ، او حاضنا صغار الارانب في حديقة البيت . وكان اكثر مايستعمل بندقيته السبت والثلاثاء ، وهما يوماغسيل الاسره . كان ناجي يتحول في هذين اليومين من كل اسبوع الى طفل آخر اذ يعلق بندقيته الى كتفه ميمما شطر الحديقة ، يتعقب او يكمن لاعداء من صنع خياله .

ومع ذلك لم يكن ناجي يحدث متاعب كثيرة لذويه كما يفعل اكثر الاطفال ، ولا يخفي حلوى البيت مثلهم ونادراً ماخرج يلعب مع اترابه في الحارة . ان ثمة صداقة قـد نشأت بين ناجي وغسالة البيت .

نال التعب من ناجي فطفق يمشي الهوينا . كانت جبهته ترشح عرقا . وكان خيطان رفيعان ينبعان من نهاية سالفيه ويجريان تحتها بعض المسافة ، ثم ينحرفان ويمران تحت شحمتي اذنيه ليتبددا اخيرا عند عنقه . مسح ناجي جبهته بظاهر كفه وقصد حانوت « نوفوتيه » كان هناك بحاران مصريان يساومان على سلعة ، فانشأ يراقبهما كما يراقب لعبة جديدة . وخطر له ان يقترب من احدهما ، ولكنه ما كاد يلامسه حتى دلف البحار الى الحانوت . عندئذ تحرك نحو الآخر وهو يدعو في سره « ليته يراني ، يا الهي احمله على رؤيتي » واقترب منه اكثر من ذي قبل . غير ان البحار سأل الحانوتي . « اليس لديك صنف افضل ؟ » كان بين يديه بعض القمصان النسائيـة الداخلية وتعلقت عينا ناجي بشفتي البحار . همس « ما احلى لهجتهم ! » هتف رجل

— ابتعدوا عنهم .. دعوهم ينتفعون .

كان ثمة جمهور قد تحلق امام باب الحانوت شأن اي مكان وجد فيه مصريون . حدث ذلك في ايلول الماضي . في اواخر ايلول الماضي . وكانت هذه اول زيارة لقطع الاسطول المصري بعد اطلاق الاسماء الجديدة عليها .

لم يأبه احد لنداء الرجل وانما تقدم صبي دفـــع ناجي في ظهره . انه شاء ان يبعده ليشغل مكانه فقال له ناجي :

— ولكني كنت الاسبق الى هذا المكان

غير ان الدخيل رفض ان يخضع للمنطق . مـــتى خضع المغتصبون للمنطق ؟ هجم الصبي وابعد ناجي من مكانه عنوة كان صبيا مشاكسا . الحق انه كان سوقياً .

وهكذا ابتعد ناجي وهو يمسح الدموع عن عينيه . قال في نفسه . « ليتني كنت كبيراً » وعقد يديه خلف ظهره ، ثم تساءل . « ترى ماذا كان يمكن ان يحدث لو رآه داؤود ؟ ولكن متى سأصير كبيراً كداؤود ؟ »

وارتفع نداء بحار يلفت نظر زميل له — اضاعـــه خلال الزحام — الى مكان وجوده . فرد المنادي من مكان ما بطبقة الصوت نفسها .

— ايه . انني هنا

قال ناجي « ما الطفهم ان الضحكة لا تفارق شفاههم .. لماذا لا يضحك جنودنا مثلهم ؟ » وشخرت شاحنة خضراء بموهة قبل ان تلفظ انفاسها الاخيرة ، وما كادت الشاحنة تهـدأ حتى قفز البحارة من فوق الحاجز الخلفي ، فخف اليهم الاهلون فعل صغار اطلق سراحهم على شاطيء رملي يرحبون بهم وبينما القوم كذلك اندفع صبي من خلال الزحـام وقفز دائراً دورة كاملة في الهواء ، ثم استقر على رجليـــه كنابض مهزوز . وكرر العملية مرات عديدة ، كما عرض فنونا اخرى من العابه .

اخيراً انحنى لهم فصفقوا له . وتقدم منـــه بحار ربت على ظهره ، ثم مد له يده . فقال الغلام

— لا . عيب . انكم .. انكم

وقفز مرتين ثم غاب بقدميه الحافيتين ، وسرواله النصفي وقميصه الملتصق الى جسمه المتعرق بين ارجل المارة .

استأنف ناجي سيره وفكر . « لله ما ارشقه .. لقد احبه البحارة ، لانه قفز بمهارة . ليتني في مثل خفته .. لو كنت كذلك لصفق لي المصريون . اواه . يجب ان أتدرب على ذلك ذات يوم .. لماذا لم افكر في هذا الامر من قبل .. لسوف احاول منذ هذه الليلة .. ولكن اين يمكنني ممارسة ذلك دون ان يتأذى جسمي . نعم ينبغي ان لا يتأذى جسمي والا غضبت ماما وحالت بيني وبين التمارين » . واستعرض اماكن عديدة ليختار منها ميدانا لتمارينه . فخطر له ان يمارس العابه على ارض معشوشبة او رملية ، لكن سرعان ما استبعد الفكرتين لافتقار حديقة البيت لاي منهما . اخيراً لقي ضالته . ذلك انه عزم ان يمارس تمارينه فوق فراشه . وارتاح لهذه الفكرة ، فشعر برشاقة غيرعادية . وركض الى الطوار الثاني . لكن وجه ناجي ما لبث ان اظلم لقد خشي ان يرحل البحارة في اليوم التالي .

اقتعد ناجي الرصيف ودار بعينيه يميناً ثم شمالا . كانت رغبته في محادثة بحار قد تفاقمت حتى امست شهوة . رأى ثلاثة بحارة يرافقهم ثلاثة من الاهالي قادمين من الجهة الغربية . فعزم ان يبتسم لهم . لكنهم عبروه دون ان يحظى برد على ابتسامته . عندئذ استوى على قدميه وهو يقول . « لعلهم لم يلحظوني .. اعتقد انهم لم يلحظوني » . وتعقبهم . كان اشبه بعاشق مسكين لا يملك رداً لهواه . فكان تارة يسايرهم من اليمين وطوراً من اليسار ، حتى لقد قطع طريقهم ذات مرة ورفع يده بحركة طائشة الى رأسه محيياً . على انهم كانوا في غفلة عنه . كانوا يسيرون متباطئين متمهلين : الساعد تلتف على الساعد ، او حول الخصر . والكتف لصق الكتف ، حتى ان بحاراً القى باهمال صغار التلاميذ القافلين الى بيوتهم في الاصائل — ذراعه فوق كتف احد الاهالي . كانوا متشابهين متجانسين كاصابع اليد .

وما لبثوا ان التقوا بجماعة مزيج من البحارة وسكان المدينة . وحالا اشرقت العيون ، وتهللت الوجوه بابتسامة عفوية . بسيطة ككتاب ذي حروف هجائية . وانقطعت الثرثرة لثانية من الزمن ، كأن ثمة اتفاقاً في الخفاء . ورددت الجماعتان معا في اللحظة نفسها ، ودون اي توقف للتعارف ، كلمة :

— اهلا

لقد تقاربت الابعاد . فالفرد يعرف الفرد والجماعة تعرف الجماعة منذ القدم . وكان يخيل احيانا ان دهشة مشوبة بالانكار ، تعبر وجوه الناس . كان الامر شبيهاً بجمال الزهرة السباقة في فصل الربيع .

القى الموكب عصا الترحال في مقهى كراسيه على الناصية . وتنقل ناجي في اكثر من مكان رجا ان يلفت الانظار اليه . لكن عبثاً ما كان يحاول . فنكص على عقبيه ، والخيبة تملأ قلبه .

وفيما هو عائد لقي بحاراً ممسكا بيدي طفلين . كان الطفلان متخلفين عنه الى حد ما . وكانا يكبدانه بعض المشقة في سحبهما . فوقف يستعرضهم . والحق كان مرأى البحار بيديه المنفرجتين المتخلفتين وبذته البيضاء ، ثم قلنسوته المزينة بزهرتين غير متجانستين جديراً بالمشاهدة . كان البحار اشبه بطير من طيور النورس متأهباً للطيران في كل لحظة لولا هذين الثقلين اللذين يشدانه الى الارض .

عندما حاذى المستعرضون ناجي مد احد الطفلين لسانه له . فرد ناجي عليه بالمثل . حين رأى الطفل ذلك بصق على الارض . فثارت ثائرة ناجي ، وشد عضلات وجهه على نحو خاص واطبق عينه اليسرى نصف اطباقة . لقد عصف به الغضب فبذل اقصى ما يستطيع من جهد لينسخ صورة مشابهة لوجه الطفل . فدار هذا رأسه وكان قد خلف ناجي وراءه فعمد الى محاكاته . ثم ما لبث طير النورس بجناحيه المنشورين المتأهبين للانطلاق في كل لحظة ان غاب عن الابصار .

وتابع ناجي سيره . لقد اطرق مفكراً . « انهما ليسا اكبر سنا مني ، ولا ثيابهما افضل من ثيابي حتى قدم احدهما عارية . فبأي شيء يتميزان عني ؟؟ . انا لا اظن انهما يملكان ارانب كأرانبي ، ولا بندقية . ورغم ذلك يخطران برفقة بحار .. ولكني ادري كيف تم لهما هذا . لقد قدما له دون ريب الزهرتين هدية ويالهما من زهرتين : فسمح لهما بمرافقته . فلو امكنني الحصول على زهرتين يانعتين لرافقت احدهم . »

واستعرض ناجي في ذهنه حديقة البيت . كان اشبه بفلاح يخجل ان يطأ عتبة سيده ويداه فارغتان . أليست المحبة لدى الصغار تتمثل بالعطاء ؟ .

وكسف وجهه « .. ولكن حديقتنا خالية من الزهور . انني لست بهلوانا رشيقاً اعرض لهم العابي ، فيربت على ظهري

احدهم . ولا كبيراً ارافقهم الى المقاهي ، وليس في بيتنا زهور آه ما أتعسني » .

وعصفت بناجي موجـة من الحزن .. ذلك الحزن الذي يجتاح الاطفال المنسيين عادة في المآتم او الاعراس . وبدا في عينيه مشروع بكاء .

ولطمه عابر فصرخ ناجي على الفور « ايه ! هل اصاب الناس العمى ايضاً ؟ انت ايها الرجل الكبير . » ولكن الرجل كان اسرع من ان تصل اليـه كلمات ناجي فازداد حدة . « رجل كبير .. كبـير كالبغل ورغم ذلك لم يرني . هل انا دودة ؟ هل انا لا شيء حتى لا اثير انتباه احد ؟.. وحق الله لو كنت كبيراً .. » وبدأت الدموع تتساقط على خـديه الموردين . فوقف بعض الناس . كان يبكي بحرقة ، فأطلق احدهم سؤالا ظل معلقاً في الهواء .

ــ ما شأن هذا الطفل ؟ هل اصابه مس ؟ .

وتساءل آخر متحذلقا . لعل له بدوره طفلا سائباً في ناحية ما من المدينة

ــ كيف يترك الناس اطفالهم في الشوارع عرضة للدوس في يوم كهذا ؟ . وحق الله هم كالماعز يراهم الشخص في كل مكان : على الاشجار .. فوق اسطحة المنازل ، والجدران .. حتى الاعمدة الكهربائية لا تمتنع عليهم . اعتقد انه ينبغي على الحكومة ان تفعل شيئاً ما في مناسبات مثل هذه

فما كان من ناجي الا ان صاح

ــ طز عليك ، وعلى الحكومة

فتضاحك البعض .. وكان اي شيء جديراً باضحاكهم في ذلك الوقت. في حين ثبت المتحذلق نظارتيه وولى هارباً وهو ينعي الفضيلة بقوله

ــ حقاً لم يعد هنالك اخلاق

وانفض جمع الرجال الكبار بعد اتفقت اراؤهم على ان هذا الجيل شيطاني

وواصل ناجي نشيجه يقطعه ترديد معزوفته

ــ ر .. ر.. رجل كبير كالبغل .. ل . ل . كل الرجال بغا .. ل .. ل . شياطيـ .. ن . ن . ن

فوقف رجل وسأله

ــ لماذا تبكي يا صغيري ؟ انه لمن المخجل ان تبكي في يوم كل الناس فيه سعداء . هل فقدت شيئاً ؟ ..

ــ لقد لطمني الرجل .ل . ل.

وعمد ناجي الى الكذب فأضاف

ــ انه داس قدمي

ــ آه . هل قلت لطمك الرجل ؟ داس قدمك ؟ اهـــذا مايبكيك ؟. ياللعار .

وتناول منديلًا مسح به عيني ناجي . وهش له

ــ هيا . سر قليلًا يتحسن الحال .. آه هكذا افضل

وضرب قفاه

ــ لقد علمت انك بطل منذ وقع بصري عليك

فابتسم الطفل ، وانطلق يعدو . اذ تفتح قلبه للحياة من جديد

اتجه ناجي صوب السبيل فروى ظمأه ، ورشق وجهـــه بالماء ، ثم مالبث ان نشر عليه منديلًا جففه به . ورنا الى السماء. قال في نفسه

ــ ينبغي ان اعود الى البيت

كانت الشمس تميل نحو الغروب بسرعة ملحوظة . ترى ماذا يصيب الشمس عند الغروب ؟ماالذي يحملها على الاسراع؟ كانت هاربة كعروس خائبة في يوم زفافها . ورد ناجي بصره آسفا كانما يقول لها

ــ انك تعلمين انني صغير .. لقد حاولت ان اصادق بعضهم

ثم تطلع الى الشمس ثانية في استعطاف

ــ هلا مكثت قليلًا ؟

والتفت يمنة ويسرة فرأى بجاراً واحد السكان يعبران الشارع ، فسرعان ماتهللت اساريو وجهه ، اذ ومضت في رأسه فكرة خف على اثرها الى البيت . كان العابران يلتهمان المثلجات ويثرثران سعيدين .

* * *

قال ناجي وقدماه تكادان لا تستقران على الارض كفرس

اتعبه الجري

ـ هلا اسرعت ؟ هـــلا اسرعت ؟ اخشى ان يغيبوا عن نظري

ـ من هم الذين تخشى غيابهم عن نظرك ؟ انك لتحيرني وحق الله وددت لو اعلم ماذا تفعل بهذه المثلجات .

وتناول ناجي قطع المثلجات الثلاث ، ثم انطلق كما تنطلق كرة مصوبة . بينا التفت بائع المثلجات الى زبون قائلا .

ـ انه ما فتىء منذ ساعة ينقل المثلجات .. ترى ماذا تعتقده يفعل بها ؟..

وتنهد الرجل

ـ من يدري ؟ . حقاً ان الاطفال لغريبي الاطوار . لي طفل .

وبدأ الزبون يروي قصة عن طفل له .

كان الزحام في شارع هنانو ما يزال شديداً . وكان على ناجي ان يناضل لشق طريقه . كان ما ان يخلف وراءه عابراً حتى تلحق به عبارات التذكر والاعتراض . على ان هـــذا الامر لم يطل به . اذ سرعان مالقي طلبته . لقد فكر « هل اناديهم ؟ » وخطا خطوتين اخريين ، ثم اقحم نفسه بين اثنين منهم ، ولكزهما برفقيه قبل ان يصل الى جواب نهائي . كانوا ثلاثة بحارة مصريين . فقال احدهم وهو ينحني قليلا الى الامام

ـ اهلا . كيف الحال ؟ ماذا ..

وابتسم ناجي ومد يديه لهم بقطع المثلجات دون ان يفوه بكلمة

ـ اهي من اجلنا ؟..

وهز ناجي رأسه موافقا .

ـ لا . شكراً .. شكراً

واجتذبت وقفة البحارة مـــع الطفل بعض العابرين . ارتفع صوت

ـ خذوها منه . لا تحطموا قلبه . حرام

سأل بحار اشد سمرة من رفيقيه ، في حين كانت يده تداعب ذقن ناجي

ـ ما اسمك ؟ ..

وضغط الصغير على شفتيه فيما كانت ابتسامته تزداد اتساعاً .

واسقط بصره الى الارض . ثم حوله الى حذاء البحار الاول ، فالثاني ، فالثالث . ثم عاد فرفعه الى وجه محدثه . اخيراً استقر على ترموس علق الى كتف البحار . وارتفـــع صوت العابر للمرة الثانية

ـ خذوا المثلجات قبل ان تذوب . يالك من طفل خجول

وتناول البحارة المثلجات تحت الحاف المتحاقين المتزايد . وشرعوا في التهامها . بينما كرر البحار الاشد سمرة من رفيقيه سؤاله بحنو

ـ ايه . ما اسمك يا شاطر ؟ ..

ـ اسمي ناجي

قال ذلك وهو يضغط على كلمة ناجي بدلال طفولي . ماطاً اياها كعادة اللاذقيين حين يلفظون الكلمة الاخيرة من العبارة . الامر الذي جعلها غير مميزة . في حين اختلست عيناه النظر من جانب الى قلنسوة البحار ووجهه ، ثم ارتاح اخيراً على صدره . وانبثق للحال صوت كما ينبثق صفير الحارس الليلي

ـ اسمه ناجي

وشد صاحب الصوت من قامته ، ونظر الى الناس كأنما يقول لهم « لقد كنت احدكم سمعاً فمن ذا الذي يجرؤ الى التظاهر بأنه كان اسرع مني في التقاط الاسم » . رد البحار

ـ آه . ناجي ؟ يا للاســـم الجميل .. هل تحبنا كثيراً يا سيد ناجي ؟ ..

ورفع الطفل اليه عينين واسعتين خضراوين كحبتي زيتون . عينين فيها عتاب وتساؤل . لقد كانتا تقولان لهم .

ـ يا الهي او تجهلون ذلك ؟

قال احد الحضور

ـ انطق يا ناجي .. كلم الاخوان .

فعلق آخر

ـ انه شبيه بالنمر ورغم ذلك فهو خجول

ـ لا تخجل ياسيد ناجي ، ان الخجل للصغار فحسب ، انك لست صغيراً .

عبث ناجي بزر قميصه ، وبرز رأس او رأســـان فوق اكتاف المتقدمين من الحلقة ، وتقلقلت الارجل بينما تركزت الانظار على الطفـــل واصاخ له الجميع . اجال ناجي نظره في وجوه الناس ، ثم استقر على الترمس المغلف بالجلد .

انبعث صوت

ــ انه ينظر الى الترموس .. انه مافتىء يرنو الى الترموس منذ مدة طويلة

فسأل البحار صاحب الترموس :

ــ هل اعجبك هذا الترموس ياسيد ناجي ؟ هل تريده . .

وامر ناجي يده عليه

ــ تحفة ، لكن ماما ستضربني ان حملته الى البيت

وسرت همهمة بين الحشد

ــ سيكون لدي واحد مثله عندما انمو واصير كبيراً كداوود . الن انمو كداوود ؟

ــ طبعاً . . . طبعاً ستنمو كداوود ، ولكن من هو داوود ؟

ــ انه أخي . الا تعرف ؟. انه من افراد المقاومة

ــ آه . نعم . . لا . . اهو كذلك حقاً ؟

فهز ناجي رأسه ، وقال بفخر

ــ أخي داوود يملك بندقية . بندقية سريعة الطلقات لكن ليس لديه قنبلة . اما انت فتحمل قنبلة فحسب . انك جندي فلماذا لاتحمل الاثنين معاً ؟ .

ــ أنا احمل قنبلة ؟. حسنا ، اين ؟ اين هي ؟..

وفطن البحار

ــ اوه ، كلا ، ياسيد ناجي

وتضاحك شخص ما ، فتبعه آخرون . بينما ردد أحدهم كعداء في نهاية الشوط

ــ لقد حسبه قنبلة . لقد حسبه قنبلة .

فأوضح البحار ببساطة :

ــ انه وعاء لحفظ السوائل ، ساخنة او باردة ، كالماء والشاي .

وقضم ناجي نهاية كم قميصه وغمغم

ــ لقد حسبته قنبلة

ــ لاعليك . والان هلا عدت الى البيت ؟ انه لايليق بالصغار ان يمضوا الليل خارج بيوتهم

وعبث البحار بشعره . كان شعره ذهبياً كحزمة من السنابل » ووجهه محمصاً كقطعة من الخبز وعيناه خضراوين . زوى ناجي مابين حاجبيه . اذ آلمه ان يرحلونه على هذا النحو السريع ، انه يرفض في أعماقه المضي الى البيت . ويتساءل . « كيف يجهلون ذلك ؟ كيف ؟ الا يدركون سبب وجودي خارج البيت » . ان تحت كومة السنابل ووراء الزيتونتين اكثر من نبتة تشرئب الى سماء البحار تسألها الهمر .

وجر ناجي قدميه فافسح له المتلحقون نعم ان العاشق ضعيف تجاه من يهوى .

ــ وداعاً ياناجي .. شكراً من اجل المثلجات .

وانفض الجمع ، ومضى البحارة . . ولكن مالبث ان عاد راكضاً ، فجلب كم البحار صاحب الترموس

ــ آه . عدت ؟ اهلا . هل هناك ماتريد قوله ؟

ــ الن تذهبوا الى يافا ؟ اقصد . . اريد ان اسأل . . اعني كلفتني ام ابراهيم ان اسأل « الم يحين الوقت كي تذهبوا الى يافا ؟ »

ــ ولم ؟ ماذا نفعل في يافا ؟ ان يافا ليست في برنامجنا

ــ ليست يافا في برنامجكم ؟ باللاسف شد ماسيحزن ذلك ام ابراهيم

وادرك البحار انه يقف على عتبة مقفلة

ــ ولكن من هي ام ابراهيم ؟

وتابع رفيقه

ــ ماذا تريد من يافا ؟

ــ انها تريد ان تبعث بهذه الزجاجة . لقد دستها ظهر اليوم في جيبي خفية عن ماما .. ان الماما لاتثق بها كثيراً وغالباً ما تقول انها خرفه ، بسبب رواياتها التي تقصها علي . انا لا اظن ان غسالتنا خرفة . ان عينيها تدمعان عندما تروي شيئاً عن اولادها وزوجها وبيتها . هل كان لها زوج واولاد وبيت حقاً ؟

ودوى مكبر للصوت تحمله سيارة معلناً عن حفلة تمثيلية لن تقام . ثم خفت الصوت شيئاً فشيئاً . وتابع ناجي . كان يقلب بين اصابعه زجاجة عادية من تلك الزجاجات التي تملأ بالمنسلين .

ــ لقد قالت لي اليافوية « اعطها للبحارة .. دعهم يقذفونها في البحر اذا مامروا بالقرب من يافا .

وصر الباب مفتوحاً أمام البحارة

ــ لسوف تحطمها الامواج الى الشاطىء . . ان ثمة صياداً ينتظرها . .

وهب عليهم ريح بارد .. ريح لم يكن منسياً ، ولكنه لم يكن متوقعاً .

اني احدثه فيها عن أحوالي .. فهو لم يعد يعرف شيئاً عن أحوالي .

وحملوا الى وديان ، وتلال وسهول ، فشاهدوا خياماً

قائمة في العراء . ناصلة ممزقة او تكاد . تتلاعب بها الانواء .

ـ « لقد ودعني ذات مساء دام ، انه لم يشأ ان يرحل مع الآخرين . لقد راح يهيم على شواطيء يافـــا ويرفرف فوق بساتينها ، ويغني مع رعاتها . كان يعتقد ان الامر لن يطول .

وتـذكر البحارة قصاصات صحف لاترتاح اليها النفس ، ونفحات ملتهبة ، وعبارات نارية .

ـ « ولكنه استيقظ ذات صباح فاذا لحيته بيضاء ،وظهره محطم ، واذا هو متوحـد حتى الموت ، فسعى الى الشاطىء يحدق في الافق مظللاً بيديه عينيه الكليلتين ».

وصمت ناجي ، كان اشبه بتلميذ تلا مقطوعة من الشعر ، وراح يرنو من ثم الى البحارة بعينيه الواسعتـــين الخضراوين كحبتي زيتون ، كأنما يقول لهم .

ـ حسننا . لقد انهيت ما علي . هل اجـــدت ؟ هل امضي الآن ؟ .

فتناول حامل الترموس الزجاجـــة وفض الرسالة التي بداخلها . فقرأ فيها :

« لاتحزني لفراقي يايافا . ولا تظني اني نسيتك ، فالاقمـار هنا ليست اقمـاراً ، ولا النجوم هي النجوم ومحبتهم كالبغض قاتلة ، لان كفة الغريب بلا اثقال . لقد شقق الغسيل يـــدي لكنه لا يكفي لتعديل الكفة . وانحدرت كثيراً نحو الشيخوخه اما شتاء هذه البلاد فقاس . ولكن لاتجزعي ، فلقد بـذرت بذرت بـذرتي في ارض بكر ، قرب حقل من الحنطة شارته زيتونتان » .

وخيم السكون وهلة . سكون حـافل بآلاف المعاني ، والاشياء الملونة ، والانغام القارعة . واندفع البحار فرفـع ناجي بين يديه .

ـ قل لام ابراهيم ان رسالتها ستصل الى صيادها
واتم اخر وكان حتى اللحظة لم ينبث ببنت شفة

ـ وان يافا لن تموت . لقد روى لي بعضهم اليوم : ان طفلاً في الثانية عشرة من العمر سـأل اباه ان يزوّر له هويته كي ينضم الى افراد المقاومة . ان امة تنجب طفلاً يقض مضجعه كيفية الحصول على بندقية ، واخر يعـــدو في الشـارع وراء ترموس وقد حسبه قنبلة ، وحامـلاً المثلجات لاشخاص لم يقع بصره عليهم من قبل تلك امة لن تغلب .

الجحفل الجبار

شعر : باكير محمود

القيت بمهرجانات المعرة في ٢٢ شباط بمناسبة عيد الوحدة

في جحفل كالسيل هادر ... غضي ونهتف عاش ناصر
غضي بدرب نضالنـــا ... والدهر منطق السرائر
اليوم يوم كفاحنا ... لن نرهب اليوم المجازر
غضي نشق طريقنـــا ... مترفعين عن الصغائر

* *

في جحفل صنع البطولة ... يمـلأ الآفاق ثائر
والخلق ينظر نحونا ... فيرى النجوم لنا منابر

* *

لك يا أخي دم مهجتي ... فامضي كمثل الليث كاسر
واعلم بأنك لن ترى ... في ارضنا آثار غادر
فاشمخ بأنفك عاليـــاً ... سندوس تجار الضمائر

* *

في جحفل كالسيل هادر ... غضي ونهتف عاش ناصر
عيد العروبة يا أخي ... فلتملأ الدنيـــا البشائر
الفجر يبسم والربى ... مزدانة والسفح زاهر
والكوخ في الوادي البعيد ... تهزه فرحات ظافر
وعلى الضفاف بكل قطر ... بيت فلاح معاصـــر
وانا وشعري دمعـــة ... فرحانـة بعيون شاعر

* *

بشر اخي العربي في ... ارض العراق او الجزائر
في كل قطـــر ثائر ... أني المعين له المناصـــر
قلبي له ودمي وروحي ... فليكن جبار قاهـر
ان العـلى دوماً لمن ... شق الطريق بسيف باتر
في آخر الدنيـــا لنا ... آثار اقـدام الدساكر
كيف الوقوف ومجدنا الما ... ضي يهز بنـا المشاعر
يا صحب هذا يومنا ... غضي ونهتف عاش ناصـر

المعرة : باكير محمود

كتب وقراء

هل يمكن قيام اخلاق وجودية ؟..

تأليف عبد الرحمن بدوي

نقد عدنان ابن ذريل

الوجودية مذهب تفرد ، وتوحد (وهي اذا قالت بالغير رالغيرية ، او الموضوع ، والوجود في الموضوعات . فذلك في حدود ذاتية ، فردية ، تفرض عليها التوتر ، والقلق ، وايضاً الضياع ..

والمسألة الاخلاقية في الوجودية مسألة ثانوية ، او مهملة ، قل ان تثار لذاتها ، اذ لاجدوى من اثارتها ، من هنا يغفلها الوجوديون ، او هم ان تعرضوا لها فمن خلال تحليل بعض القيم الوجودية ، الذاتية ، او الموضوعية .

والوجوديون بين منكر للاخلاق ، وبين قائل باسكانها ، قال كيركجوارد ، ويبرز بمرحلة الاخلاق ، وتعريها الى مرحلة أعلى ، وفي عند الاول مدرج الدين ، وعند الآخر الاصل الوجودي ، وحلل هيدجر كثيراً من المقولات الاخلاقية مثل الخطيئة والضمير ، ولكنه لم يحملها على المحمل الاخلاقي ، التقويمي ، ورأى جان بول سارتر ان الاصل في القيمة هو النقص الذي يتعين بالنسبة اليه الوجود لذاته من حيث وجوده نقصاً ، ولهذا ارتأى قيام تحليل نفسي وجودي هو بمثابة وصف اخلاقي ، يبرز المعنى الاخلاقي لمختلف المشروعات الانسانية .

وصديقنا الفيلسوف العربي الدكتور عبد الرحمن بدوي لا أخلاقي في الوجودية ، وسنعرض هنا رأيه في الاخلاق ، محللين مضمونه ، ناقدين فحواه ، انه فتح عربي بين (هل يمكن قيام اخلاق وجودية — مصر — ١٩٥٣) .

يرى الدكتور عبد الرحمن بدوي ان الوجود وجودان ، وجود الذات ، ووجود الموضوع ، وجود الذات هو الاصل وهو المقصود من كلمة وجود ، ووجود الموضوع بعد الوجود في العالم ، بين ادوات ، بمثابات مجالات تحقيق الذات لامكانياتها .

والوجود الذاتي هو وجود الانسان على هيئة وجود ما هوي ، ستشرف الى التحقق على هيئة الآنية ، والصلة بينهما صلة فعل فحسب .

هذه الصلة التي لتحقق الفعل غير ضرورية ، من حيث الطبيعة ، والجوهر ، والماهية (والمعنى هنا واحد) ، وانما يحقق الوجود الذاتي امكانياته ، بواسطة الاشياء يتخذها ادوات لاخراج مابه من امكانيات الى حيز الفعل ، والواقع .

والشقاق في طبيعة الوجود ، أو مشاقة الوجود لنفسه ، هو عنده ، المسلمة الاولى ، التي على اساسها يجب ان يوضع المذهب الاخلاقي ، فكرة التوتر ، عنده هي التي يجب ان تسود النظرة الاخلاقية .

فالاخلاق عنده اذن ، لا وجود لها الا بالنسبة الى وجود الموضوع ، لان فيه يكون الاجتماع بين الذوات المختلفة ، ويكون التصادم فيما بينها ، بعضها مع بعض ، في سبيل تحقيق امكانياتها .

هذا التصادم تنشأ عنه البواعث لاقامة شرعة تنظم ممكنات التحقيق ، والقانون هو الصيغة التي يتواضع الناس عليها لتحد كل ذات من ذاتها ، وكذلك تنحدر المعاني الاخلاقية الموضوعيه من واجب ، وخير ، وايثار ، وعدل ، واخلاص ، ورحمة .

هذه الاخلاق الموضوعية ، وهي التعبير عن صلة الوجود الموضوعي ، بالوجود الذاتي ، تفقد الوجود الذاتي كل حقيقته :

انها تفقده الحرية ، وهي سر الابداع ، وبغيرها ما كان ثمة وجود ، ولبقي الامكان معلقاً ابداً ..

والحرية يجب ان تكون مطلقة ، والا لم تكن شيئاً ، اذ الحرية المشروطة أشد من العبودية نكراً ، لانها تذبذب العقل بين التحقق ، واللاتحقق ؛ والاولى الانسياق في الواحد، او في الآخر .

وتفقده المشاقة وما تستلزمه من توتر لاقوام له الا بالاخذ بالاطراف المتعارضة المتناقضة في وقت واحد معاً ، فكيف يتحقق والوجود الموضوعي يضحي بالذات على مذبح المساومات الرخيصة ؟!

وتفقده الشعور بالوجود ، ذلك ان شرعة الأخلاق في الوجود الموضوعي تستهدف الامان ، كما ترفع الحظر ؛ كما تستهدف الطمأنينة ، والانكماش في حدود مصطنعة ، واي معنى للوجود بدون الغزو ، والانتصار ، وماذا يبقى للذات لادراك وجودها الاصيل بدون القلق ، والحياة في القلق ..

الوجود الموضوعي اذن اداة يستخدمه الوجود الذاتي لتحقيق امكانياته ، والفعل يضطر الذات الى الموضوع ، لا قوام له الا بالفعل الصادر عن الذات ؛ فالاحالة متبادلة ، ولكنهـــا لا تقبل الرد ، فلا نستطيع ان نرد الواحد الى الآخر ، لانها من التعارض في الطبيعة بحيث لا احـالة الا في العقل : فهو الصلة الوحيدة بينهما ! . فماذا يفعل المرء ؟.

اما ان تقول بالاخلاق ، وتفقد ذاتك ؛ او ان تقول باللا اخلاق ، فتخاطر بوجودك !.

والوجودي الحق هو الذي يفضل ان يخاطر بوجوده ،على ان يفقد ذاته ، لان المخاطرة بالوجود هي من صميم الوجود نفسه ؛ ولان فقد الذات فقد اسباب الوجود .

الوجودي الحق هو المتوحد الاكبر ، بينه وبين القاعدة عداوة مستحكمة لا سبيل الى زوالها .. انه الحرية نفسها ، الحرية الغير مشروطة ؛ انه الفعل الدائم ، اياً كان نوعـــه ، ونتائجه ، فلا معنى للواجب ، والاثم ، والخطيئة في هذا الباب

الفعل هو الغاية ، فلا يتقوم بغيره ، ان تيار الوجود المتدفق لا يسمح بالتوقف ، والتعلق . .

والهدف الاوحد للذات ، ان كان لابد من التحدث عن هدف ، ان تكون مرهفة الانياب تعض على الممكنات ، حتى تأتي على اكبر قدر منها مستطاع ، فالوجود الذي تضعه القواعد الموضوعية العامـــة وجود نازح ، بينما الوجود الحق حي عامر بلا مكان ، وبتحقيق الامكان .

ولئن جاز للوجودية ان تستخدم فعل الامر لقالت : افعل ما شئت مادام جديداً ..

اننا نحيي هذه اللا اخلاقية ، لان فيها حقاً انصافاً للوجود الانساني ..

الوجودي المتفرد حر ، انه فعل دائم ، وهو ان استخدم الوجود الموضوعي ، فتحقيقاً لامكانياته في مجال الابداع ، والغزو ، والانتصار ..

التقرير حقاً منصف ، امين ، وهو يصلنا حتما بالانتصار ، الذي ينص عليه صراحة ..

فوقف اللا اخلاقية للحكم الاخلاقي ، وقف صوري ، في حين هو حرية ، وغزو ، وصيغته معيار : افعل .. افعل..

معيار الفعل اذن تحرر ، وتوسع ، وصيغته الامر نور يقيني عملي يهدي ، ان شاء الله ، الى صراط مستقيم ..

هذه اللا اخلاقية ثقة بالوجود ، وتفاؤل بالموجود ، انهـا باعثة على التحرر ، وميزتها انها سمحت بالغزو ..

وقد نص صديقنا الدكتور عبد الرحمن بدوي على الغزو ، والانتصار ، ولكن اجمل القول فيه ، ولم يفصله ، ولنا امل ان يوضح ما أوجز ، ويفصل ما أجمل !. والله ولي التوفيق !.

دمشق — عدنان ابن ذريل

الشاعر وولت - بقية -

الانذار يدوي في البلاد .

وقد فتح (ولتـــان) باباً جديداً في الشعر اذ جعله بلا وزن ولا وزن ولا قياس وكانت ابياته طويـــلة وفي بعض الاحيان مزعجة وكأنها شاحنة محملة .

وقد لاقى هذا التجديد من (وتمان) في الشعر — اقبالا شديداً من الادباء الشباب خاصة واقبلوا على كتابه يقرؤونه ويحاولون تقليده وتتبع خطاه حتى كان له انصار عديدون حملوا رسالته الى مجالس الادب ، ويعتبر (وتمان) من الرواد الاوائـــل للشعر الحر الطليق في ديار الغرب وان كان مذهبه هذا الجديد في حرية الشعر وانعتاقه من القيود والاوزان — قد عارضه بعض المتزمتـــين في الشعر — فانه شق طريقه في مجال الشعر والشعراء واتخذ لنفسه قاعدة ثابتة لايزال كتاب الغرب حتى يومنا هـــذا يعتمدون عليها في جل قصائدهم ويعتبرونها اقصر طريق لنقل الافكار الى عقول القراء والتأثير في نفوسهم وعواطفهم .

دمشق — صلاح الدين موسى

هل عندنا شعر؟

بقلم الزميل عبد الله الشيتي

سكرتير تحرير الزميلة «الايام»

الشعر في رأيي شعور ، يلامس القلب ، ويحـــدث في النفس اهتزازاً ، فينبض به الوجـدان على فيض من الانفعال الذاتي تجاوباً مع حركة الاهتزاز تلك ، وما كان دون هذا ، وبمجرد ادنى شك بجودته واصالته . لم يعد شعراً ويبقى مجرد رصف كلم ، ونثر قصيد مقفى ، او هو نظم أجوف خال من الحس ، ليس له وقـع ولا جرس ، ودونما اتساق في المبنى ، ولا نضوج في المعنى ، وانما تجريـــد من الفكرة ، وافتقار لاسـلوب الاداء السليم ، الذي يتسلل برفق ولين الى القلب ، يشيع فيه الارتياح ، غب ان يستأذن السمع ، من غير املال ولا سأم .

فاذا كان على احتوائه كل هذه الصفات والمقومـــات ، واشتماله على مبدأ الاصالة ودعائم الصدق في التعبير ، والاخلاص في العمل الفني ، فهو قـد تهيأ لمرحلة اخرى ، هي مرحـلة البناء ، بمعنى ان الشعر ايـــاً كانت ارومته ، حديثه وقديمه يجب ان يكون شعراً بناءاً ، ذا رواء وعطاء ، وفيه نتاج سام لهـدف اسمى ، وزخم حسن لغاية احسن ، وسيلتها نقاوة التعبير وسلامته من كل شائبة ، لا ان يكون سفسطة ، ووسيلة افتعال ، واداة ارتجـال عيّ ، وترفاً كتابياً ليس غير ؟!

واذا كانت المدرسة القديمة لازالت محافظة على تراثها ، وكان خريجوها يتمتعون بأفر قسط من التجـــلة ، فمرد ذلك الى ما خلفوه من روائع الشعر النابض ، في شتى الوانه وخصائصه ، سواء من دفق الشعور ، او سبك الحكمة في قالب امتن من ان يأتي عليه التداعي ، او يواكبه الباطل ، بحيث صاغ اقطاب الشعر العباسي والاموي ورواد عصر صـــدر الاسلام أسمى آيات الحكمة والمآثر والاحاسيس ، مما يفخر به حقاً ، فكانوا بالفطرة التي نشأوا عليها حريصـــين على تصوير المجتمع الذي لازموه ، والبيئة التي عايشوها وتفاعلوا فيها ، تصويراً دقيقاً . فانشدوا الحب ، وتغنوا بالاظلال ، وطربوا للحداء ، وبسقوط بغـداد ، منارة الفكر في ذلك الحين ، سقطت معالم حضارة ومجد تليد ، وجمد الصقيـع في القرائـح ، حتى اذا ما انبعثت الانتفاضة الثورية من قلب الازهر ، من جديد ، وعادت للشعر مكانته ، وللادب عامة فعاليته .

ولا مشاحة ان القصيد في العصر العباسي كان يغلب عليه طابع القوة ، فكانت القصائد في غالبيتها متينة عصماء ، وبعيدة عن كل تزمت وتقعر ، وقوالبها متخلصة من كل قيد ، ومتحررة من كل تحجر وجمود ومنذ ذلك الحين كثر شيوع (رقة الالفاظ) بكثرة الشعور الوجداني ، وسلاسة العبارة ، كما عم الشعر الموضوعي ونما ، وهو يصف الطبيعة ، ويفلسف حياة الانسان والمجتمع ، ويصور الكون والفن والحياة العامة والوجود الانساني .. وان كان الشعر آنذاك بدأ اقل تأثراً من النثر ، وامنع خضوعاً للصناعة اللفظية ، وهناك شعراء مثاليين بارزين في هذا امثال البوصيري والحلي ، والشاب الظريف وغيرهم ، ومهما اختلف النقاد في تقييم الشعر ، وتنقية ما سلم منه ، وغربلته بدقة واحكام وروية ، نرى ان الشعر قـد انحط في الآونة الاخـــيرة لمجرد الميل الى الصناعة اللفظية ، وانعـــدام الفن الرهيف ، وطغيان ادب « الـــكم » على ادب « الكيـــف » ، وجعل اللفظـــة مقدمة على الفكرة ، والمبنى دون المعنى ، واذا جاء من يخلع على شعرنا الحديث ، الحديث بفوضويته لا بعفويته ، وبتكلفه لا بفطرته اذا جاء من يخلع عليه ثوب الجودة ، فانها ــ في كل الاحوال لا تضاهي مافي شعراء الاسلاف الفحول من قوة وفعالية وشعور :

على اننا لا نجحف ، ولا نغمط البعض ــ وهو قليل ــ حقه من الابداع والاثر الادبي ، وهم من قادة فكرنا البررة الخلص لرسالة الفن للفن .. والفن للحياة ، للمجموع ، والامناء على تركة الفكر ، المعاصر المخضرم ، كالبارودي ، وحافظ ، وشوقي ، والرصافي ، ومحمد عبده ، وقاسم امين ، وجرجي زيدان ، ومصطفى كامل ، والمنفلوطي ، ومي .

لقد كان هؤلاء المجيدون ، يعنون بالتصوير الحياتي المعبر عن مكنونات وخلجات النفس ، ويصقلون جوهرها صقلا تفترضه البيئة ، ويفترضه الواقع الصادق الذي التزموه ، نفس النزعات التي خامرت شاعرية المجيدين القدامى !

وبقدر ما وصل اليه الشعراء القدامى من مجد وبقاء ، فان بمقدور المدرسة الحديثة وبمتناولها ، ان تحذو الحذو نفسه ، وان تتطور به نحو ما يراد له من اهداف تخدم الامة ، وتسهم في

معركة بقائها عزيزة شامخة « باستثناء الشعر المنثور ذي العجز المفضوح ، والذي لا يعتمد على مبنى ولا معنى .. ولا ايقاع بل هو بعثرة كلام وبعثرة معان منها الغث ومنها الرديء وما كان اهون الشرين كأن كلمات وحروفاً ليس الا .

بلى .. ان بمكنة مدرستنا الحديثة ان تكتب لنفسها البقاء والاستمرار عبر الاجيال ، اذا كان ابناؤها صادقي الشعور ، صادقي التعبير ، واذا روعي سلامـــة المعنى يتوالد أدباً حياً تتوزعه « الكيفية » لا « الكمية » . !

ونسمح لانفسنا ان تتفاءل وبين ظهرانينا مثل عمر ابو ريشة وشفيق جبري ، ونزار القباني ، ونديم محمد ، والشاعر القروي ، وسليمان العيسى ، والصافي النجفي ، وطلعة الرفاعي ، ومدحة عكاش وغيرهم ممن يعيشون تجاربهم وتجارب قومهم وبيئتهم بصدق ، ولهم نشاطات حسية في اكثر من قطاع وميدان ، فضلا عن ان للواحد منهم على اختلافهم في العقلية والمشارب ، اسلوبا خاصاً به حتى ليميزه عن سواه ، ولكنهم يلتقون في نهاية المطاف عند هدف البناء .

نريد شعراً ثورياً حياً معبراً ، يفعل فعل البندقية ، مثلما يكون كالوردة الندية ، نريده « اكسيراً » لحياتنا ، وديمومة لبقائنا على مستوى عال من الفكر الرائع المثمر ، نريد نتاجاً في الشعر ، لا دراسات وانتقادات في كيفية قرض الشعر ، وفي كيفية صنعته وتبيان وسائله واورمته ، فاشتغالنا في هذا ، على حساب الادب ، تصنيع الادب ، بما فيه من شعر ونثر !

سنظل نصرخ بالحاف : نريد انتاجاً ولا نريد تقييماً على حساب الانتاج ! .. لا نريد مضيعة الوقت في جدل بيزنطي عقيم .. كما لا نريد بحال ، ان تستشري آفة الشعر المنثور الذي هو وليد العجز فحسب ، والذي يتهدد اللغة في رابعة النهار ، ونريد القضاء على آفته وقد تفاقمت ، وعلى طفرته وقد استشرت ..

انه — اي النثر المشعور — عصا في عجلة مستقبلنا الادبي العملاق ، ولا يتم هذا ، او بعضه الا اذا ضاعفنا من كيفية الانتاج الدسم للاسواق لا من كميته وادرنا ظهر المجن لهذا الهراء القميء ، وعلينا بالتالي ان نسلك ما كان صالحاً منه وهـــذا نادر ، والنادر لا حكم له ، علينا مع ما في ذلك من تسامح ان نسلكه مسلك النثر الفني ، او نعتبره كلون من الوان الكتابـــة لا اكثر ، توخياً للاستصلاح ووضع النقاط على الحروف بيضاء من غير سوء.

لنسع من اجل هذا ، ولنعمل لكي يتحرر شعرنا من الشوائب والاوضار .. فمتى يتكامل هذا التحرر ?

عبد الله الشيتي

النشاط الثقافي في الوطن العربي

احتفال المركز الثقافي العربي في اللاذقية بعيد الوحدة

أقام المركز الثقافي العربي في اللاذقية احتفالاً رائعاً بمناسبة عيد الوحدة اشترك فيه شاعر اللاذقية الكبير الاستاذ رشاد رويحه والشاعرة المبدعة السيدة عزيزة هارون والشاعر الاستاذ قاسم علاف والدكتورة جمانة سليمان الاحمد الذين قدموا باقة من اشعارهم وكلماتهم القومية الرائعة بهذه المناسبة .

وقد احتفل المركز الثقافي بهذه المناسبة القومية احتفالاً ضخماً دل على مدى الامكانيات الخلاقة التي يتمتع بها الاساتذة المبرحون على هذا المركز .

وقد شهد الجمهور المتفرج بالجهود الجبارة التي بذلها المركز الثقافي لاحياء حفلته الخاصة بالوحدة وقد كانت الحفلة موفقة الى حد اذهل الكثيرين ممن حضروا الحفلة فقد تضمنت الحفلة الى جانب الاشعار والكلمات القومية مشهداً تمثيلياً ونشيداً لحن خصيصاً لهذا العرض وان استعرضنا المحاضرات والحفلات التي قدمها لنا المركز الثقافي في الموسم الحالي يمكننا ان نحكم على صدق الجهود الجبارة التي تبذل في سبيل رفع مستوى هذا المركز وجعله داراً للثقافة العربية الشعبية الواعية بكل ما في هذه الكلمة من معنى .

وقد بدأت تظهر بالفعل الثمار الاولية الناضجة التي عملت من اجلها هيئة المركز .

فكان ان احدثت المرة الاولى قاعة ضخمة هادئة تستطيع القارئة ان تتناول فيها الكتاب الذي تريده . كما تستطيع توجيه اي سؤال او مشكلة خاصة بها وبعائلتها وظروفها الى المشرفة الاجتماعية المسؤولة عن الاجابة .

وتشرف الاستاذة الاديبة ذكية الصوفي خريجة السوربون على الفرع النسائي في المركز، وقد استطاعت بما لها من شخصية ادبية ان تجذب الى المركز نساء عائلات لا يدخل الكتاب الى بيوتهن الا عن طريق الصدفة كما ان المركز يهيأ حالياً ليظهر برامجه ومشاريعه الى عالم الوجود واهم هذه المشاريع بناء قاعة لمطالعة الاطفال وبناء قاعة للاستماع الموسيقي وتجهز قاعة المسرح بالادوات الاذاعية والسينمائية الحديثة .

هذا بالاضافة الى مايبذله من جهد لجعل القارىء العربي يتصل اتصالاً يومياً ومستمراً بأحداث العالم العربي والقصة العربية عن طريق المجلات والصحف الادبية والسياسة التي يقدمها المركز طازجة للقارىء اولاً بأول .

ان البرامج العربية الهادفة التي يتبناها المركز الثقافي تجعلنا متفائلين ومطمئنين الاطمئنان الكامل على مصير جيلنا وأدبنا وثقافتنا .

وبهذه المناسبة نود ان نذكر ان المشرفين على هذا المركز من خيرة الشباب العامل في الحقل الادبي والاجتماعي فالاستاذ علي الحاج بكري مدير المركز صانع حرف ونحات فكرة من الطراز الذي يصعب على الكثير من فطاحل الادباء في دنيا العروبة الاتيان بمثله والاستاذ فؤاد سالم المدير المساعد للمركز ذواق ومتبحر في كثير من العلوم التطبيقية هذا بالاضافة الى قدرته العالية في شؤون التنظيم الاداري والفني .

كما ان للاستاذين السعدني والحسيني جهوداً لا تنكر في خدمة هذا المركز .

وبعد فاننا نأمل مخلصين ان يتابع المشرفون على هذا المركز المنهج الذي ارتسموه بنفس القوة والعزيمة التي بدأوا بها تنفيذ اعمالهم ، لا نشك في ذلك .

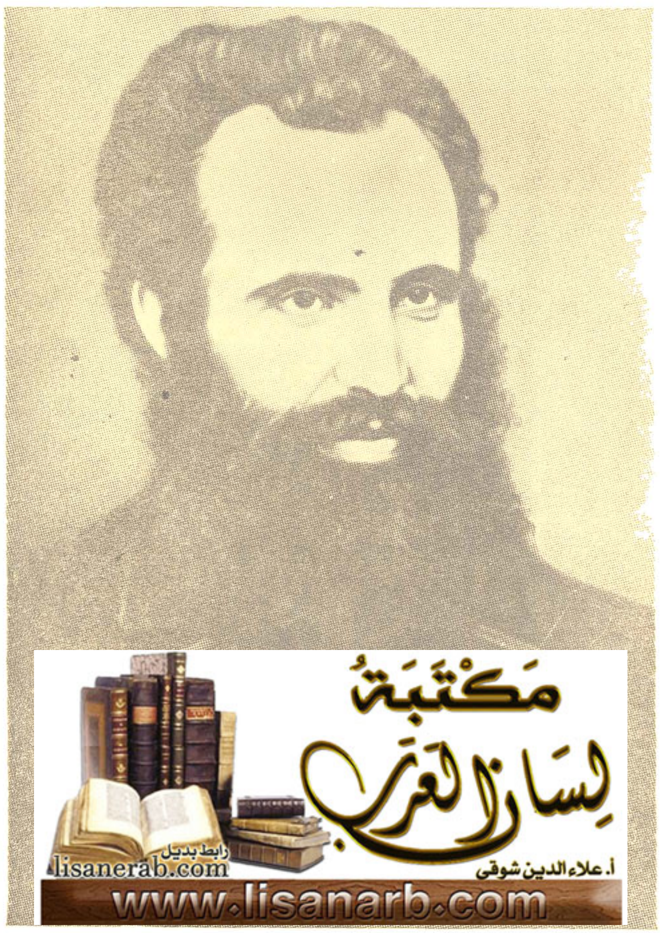
(س)

ليوبن كارافلوف

الكاتب الثوري البلغاري البارز

بقلم : ايفان سترمسكي

في الثامن من شباط من العام الحالي كان يوم ذكرى الثمانين لوفاة الكاتب البلغاري الثوري البارز ليوبن كارافيلوف . هذا الكاتب الذي ترك اثراً لايمحى في تاريخ التحرر الوطني للشعب البلغاري ضد الحكم العثماني الجائر كما ترك أثراً في تاريخ الادب والصحافـة البلغاري . وان التراث الادبي والثقافي الذي خلفه لنا هذا الكاتب الكبير قد أثر تأثيراً قويا ولا يزال ايضاً يؤثر في التطور الحقيقي للادب والصحافة البلغاري ، وان نفوذه الثوري العميق كرجل من عامـة الشعب لايعرف الكلل وكوطني متأجـج حماساً ومنشيء الشبيبة التقدميـة من الناحية السياسية والفكرية لم تكن بالشيء القليل . وقد استطاع ليوبن بنشاطه العظيم الخلاق وحماسه الثوري وحبه العميق للشعب ان يحتـل الصفوف الامامية بين اولئك الذين ساهموا في نهضتنا الثقافية كما اعتبر من المناضلين البارزين في تخريـج بلغاريا من الحكم التركي الذي دام خمسة قرون .



لقد نشأ كارافيلوف في قرية صغيرة تدعى كوبريفشتيتزا في جبال البلقان اذ ان هذه القرية قد اعطت النور لهذا الوطني المناضل . وبعدان امضى فترة قصيرة من الزمن في مدرسة بلغارية وانتقل منها الى مدرسة يونانية في بلوفديف ذهب الى موسكو حيث اقام هناك عشر سنوات كاملة (١٨٥٧ — ١٨٦٧) كما تابع دراسته وعمل في نفس الوقت كاتباً وصحفياً . وبتأثير الديموقراطيين الثوريين في موسكو أمثال هرزن ، تشرنشفسكي ، وبروبوليوف ، وبيساروف ، وكتاب بارزين روس واكرانيين امثال غوغول ، تورجنيف ، تاراستشفنكو ماريو وفوفتشكوك استطاع كارافيلوف ان يكوّن معتقداته الفكرية والسياسية والادبية. كان حالة الشعب البلغاري المؤلمة الشعب المحروم من جميع حقوقـه والمعرض للسلب والاستعباد من قبل الملاكين العقاريين والباكوات الاتراك والكهنة اليونانيين لكل ذلك كان اثر كبير في تكوين تفكيره التقدمي ومعتقداته السليمة . والذي ساهم ايضاً في تحديـد وجهات نظره وتركيزها كانت الحركة الثورية للتحرر الوطني قام بها راكوفسكي .

ان اول مؤلفات كارافيلوف في ميدان الصحافة والآداب الجميلة قد كتبت ونشرت باللغة الروسية وذلك في الصحف والكتب الدورية الروسية . وقد نشر هذا الكاتب مجموعة من القصص والاخبار والمقالات وبعض انطباعاته عن الرحلات التي قام بها ومجموعـة من الدراسات حول الفنون الجميلة الشعبية البلغارية كما استطاع ان يطلع الكتاب الروس بواسطة مؤلفاتـه عن الحياة القاسية التي لا تطاق والتي كان يعانيهـا الشعب البلغاري عن طريق الاستبداد والظلم . وفي سنة ١٨٦١ نشر ديوانه المشهور « صور عن الادب الفني الجميل والطبائع البلغارية » كما نشر ايضاً في عام ١٨٦٨ ديوانـه « صفحـة من الام الشعب البلغاري » حيث احتوى هذا الاخير على أجمل ما لهذا الكاتب من صور وأفكار .

لقد كان تأثير هذا الكاتب ايضاً في تطور الادب الغربي

حيث ظهر هذا التأثير جلياً في حياة ونضال الشبيبة التقدميـة الغربية ، وفي غضون عامين من الزمن قضى كارافيلوف ايامه في بلغراد . ونوفيسلد حيث تفرغ بنشاط قوي وهمـة لاتقهر واشتغل هناك كاتباً وصحفياً والف عدة قصص منها « هل هذه خطيئة القدر » ثم الافكار القديمة المثالية للفن والادب الرومانتيكي الحديث الغربي .

وفي بوخارست ظهـــر ليوبن كارافيلوف بكل مقدرته الخلاقة ككاتب وصحفي قدير حيث بدأ في تشرين عام ١٨٦٩ بنشر كتاب (سافوبودا) الذي اصبح اساساً نظريا وفكريا للحركة الثورية البلغارية كما تحول الى مصـدر ايديولوجي للجنة المركزية الثورية البلغارية . وقد باشر كارافيلوف نضالا قويا ضد حكومة السلطان وضـد جميع مؤسساتها واجهزتها العفنة ضد العملاء البلغار الشوربجيين (ملاكون كبار كانوا في بلغاريا) وضد نظام الظلم الاقطـــاعي البلغاري وانتخب ليوبن في شباط ١٨٧٢ رئيسا للجنة الثورية واصبح موجهـــاً للحركة الثورية البلغارية وفي مطلع السنة التالية حيث ان السلطات الرومانية علقت نشر كتاب سافوبودا لذا استعاض عنـــه كارافيلوف بصحيفة الاستقلال نزافيسيوست التي ابتدأ بنشرها آنذاك . وفي خلال هـذه المدة اعطى كارافيلوف درساً عن نشاطه ومقدرته الفـــذة ككاتب وصحفي قدير فلقد كتب عدداً كبيراً من القصص والاخبار والمقالات ومذكرات عن الرحلات وكثيراً من الانتقادات الادبية والروايات المتسلسلة والاحاديث وغيرها .. وفي جميع كتاباته كان يدافع بحزم وثبات عن صحة معتقداته الثورية الديموقراطيـــة وعن نقده الادبي . وقد اصبح حاملا لواء المهاجرين الثوريين والشعب المضطهد وذلك بروحه الحية وحسه العميق وقدرته العظيمة في العمل واتساع مداركه وذكائه الأخاذ .

ان المكان العظيم الذي احتله كارافيلوف في ميدان الادب البلغاري يعود سببه الى الصفات المميزة التي كان يتمتع بها والى قصصه الجديدة . وقبل ظهور مؤلفات هـذا الكاتب باستثناء ما جاء به الكاتبان درومیف وبلازكوف كان الادب البلغاري يقتصر على قصص ومحاورات دينية وادبية وقراءات تعليمية . ولذا يمكن ان نعتبر ليوبن اول من عمل في النـــثر الواقعي البلغاري والنقـد الادبي الصحيح . وقد كان يعتبر ليوبن ان الانتاج الادبي بمثابة سلاح قوي يستعمل ضد مفاسد الدنيا وضد شقاء وآلام الشعب بنتيجة الظلم والاضطهاد الذي كان يلقاه من الاستعمار التركي البغيض . لقد كتب ليوبن ان حياة الشعوب مليئة بالمتاعب والآلام ويتوجب على كل كاتب او اديب ان ينقل هذا عن طريق انتاجـه الادبي بشكل صور واضحة وبأمانة خالصـــة واننا نلاحظ في مؤلفاته الادب الرومانتيكي الثوري وخاصـــة عندما يصور حياة ونضال اولئك الذين يدافعون ويناضلون في سبيل مصلحـــة وحياة الشعوب . «هايدوك »

ان في مؤلفات كارافيلوف جانب عظيم من الوصف القوي للعادات القديمة الموروثة عن الاجداد للشعب البلغاري النشيط ولطراز حياته العملية اليومية . وان كتابه « البلغار في العهود القديمة » الذي يظهر فيه اسلوبه الهزلي البريء والمليء بالحيوية بشكل يجعله قريباً جداً من الواقع لهو مثال على مؤلفاته من هذا القبيل وان اللغة التي يستعملها كارافيلوف سلسة ومستساغة كما ان اسلوبه عذب واضح وملون غني بالتعابير الشعبية . حيث يظهر ذلك جلياً في مؤلفه « البلغار في العهود القديمة » .

ان قسما كبيراً من مؤلفات كارافيلوف تبين حقيقة الشعب البلغاري تحت نير الاستعباد التركي كما تصور نضاله في سبيل الحصول على حقوقه الانسانيـة وحرياته السياسية . وان قلمه الحاد يخط بحيوية واندفاع ويزجر بقوة المظالم الصارخـــة والاضطهاد والاغتصاب الذي كان يذهب ضحيتها الشعب البلغاري الجد . كما ان هذا القلم كان يبين المصير المشؤوم لشعب مستعبد كي يثير الحقد والبغضاء ضـــد المعتدين الاجانب (نيدا ــ فوافردا ــ دونتشو ــ الباشا الـــتركي ــ الشهيد ــ بكاء بلا دموع على ضريح الغير ــ الخ ــ ...) وان قصصه ورواياته هي في الوقت نفسه مصادر امينة وواضحة للمقاومـة البطولية ضد الطغيان تلك المقاومة التي كان يذهب فيها خـيرة الشباب عندما كانوا ينخرطون في صفوف المقاومـــة والحركة الوطنية التحررية .

لقد كان كارافيلوف يسلط الاضواء في كتاباته الادبيـة ويوجه انتقاداته اللاذعة الصريحة الى النظام البيروقراطي الاقطاعي للدولة العثمانية هذا النظام السائر نحو الزوال وكان يقذف بشدة الحكام الاتراك وكبار رجـال الدين اليونانيين والاقطاعيين البلغار الشوربجيين الذين كان يصورهم بصور قاتمة « الولد السيء » و « حجي نتشو » و « الغني الحقير » . وان الشيء الاكثر في مؤلفاته هو معتقداته بالدفاع عن العـدالة الاجتماعية وافكاره الديموقراطية .

ان اعمال كارافيلوف في ميدان الادب لا تزال حية حتى يومنا هـذا وان الشعب البلغاري الذي يتصف بعرفان الجميل يحفظ بغيرة وبورع جميع المخلفات الادبية الثورية الواسعة التي خلفها له كتحفة جميلة وينبوع لا ينضب من الجمـال ومن ارادة العيش ومن القدرة الوطنية العظيمة ومن الثقة بالمستقبل الزاهر .